شذرات

من غوطة دمشق

شذرات قصص
ومذكرات تحاكي واقع
الغوطة

محمود طعمة

شذرات من غوطة دمشق

مقالات وقصص قصيرة تحاكي واقع غوطة دمشق في حصارها

لمحمود طعمة

شذرات قصصية تتناول مقالات وقصص حقيقية في غوطة دمشق التي عاشتها في الحصار، ما بين عام ٢٠١٢ وحتى ٢٠١٨

تصميم الغلاف: محمود زهرا

تدقيق: د. أحمد عوض

الفهرس

الإهداء.. ٤

هنا نعيش.. ٦

درب السعادة.. ١١

عندما أجبتهُم كيف كنا نعيش !.. ١٣

همسات من ذاكرة الموت [الكيماوي].. ١٧

وسلام علينا يوم نولد ويوم نموت ويوم نبعث أحياء.. .... ٢٠

مائة وواحد من عظماء أمة الإسلام.. ٢٥

عاركتُ الموتَ فانتصرت.. ٣٠

إليك يا لبنان.. ٣٣

الأمبولة الأخيرة.. ٣٧

ليسا بشراً لكنهما توأم.. ٤٠

من أنا.. ٤٥

وما أدراك ما الأم. ٥٠

شيخون والغوطة تئنان.. ٥٣

مذكرات صفراء.. ٥٦

أمي ".. ٥٨

أوركسترا السوريين ٢٠١٨.. ٦٠

غرفة العمليات.. ٦٤

صورٌ التقطتها بقلمي.. ٦٦

خانتني أمبولات الإنعاش يا أخي.. ٧٠

ذات يومٍ كان هناك بيت.. ٧٤

الباطل ينتصر والحق يهزم.. ٧٦

في الغربة البحث عن الله.. ٨٠

ربي إني حججت بخيالي فهل تقبل مني ٨٤
العنصرية لا دين لها ٩١
الحنين إلى المأساة بين الماضي والحاضر ٩٤
سنة أولى (غربة) ٩٨
سنة ثانية (غربة) ١٠٢
عن الكاتب........ ١٠٦

الإهداء

تدور الأرض بنا كما تلتف عقارب الساعة على أرقامها، تمر على الجميع دون استثناء أحد، وما من أحد يستطيع الهروب من تحت السماء كذلك الأرقام في الساعة وكذلك القدر مكتوب على الناس، بالرغم من كل ما مرّرنا به من تفاصيل قاسية وقاهرة، وبالرغم من الأسى والظلم وتراكم التفاصيل والأحداث كان لابدَّ من أن ندون جزءاً مجزئاًمن كفاحنا ومعاناتنا.

من الخوف، من الظلم، من القصف، من صوت اصطكاك أسنان طفل من البرد، من كل مفردات المعاجم، من دموع الأيامى، من الذين لا تتسع الصحف لذكرهم،

من الغوطة الشرقية

إلى الشجر والحجر إلى التراب وذرات الغبار

إلى لافتات القبور وإلى الركام

إلى كل من يقرأ كلماتي ولم يرني

إلى من يؤيدني ويعارضني

إلى عائلتي إلى دمشق وأهل الغوطة وإلى الحصار

إلى أمي وأبي

إلى نفسي وقلمي المتواضع وصُحفي الممزقة والسليمة

إليكم أنتم أهدي شذراتي.

صورة حقيقية تبين حصار غوطة دمشق من عام ٢٠١١ إلى ٢٠١٨

الخط الفاصل بين الموت والحياة

بين ارادة الحرية وبراثن الطغيان

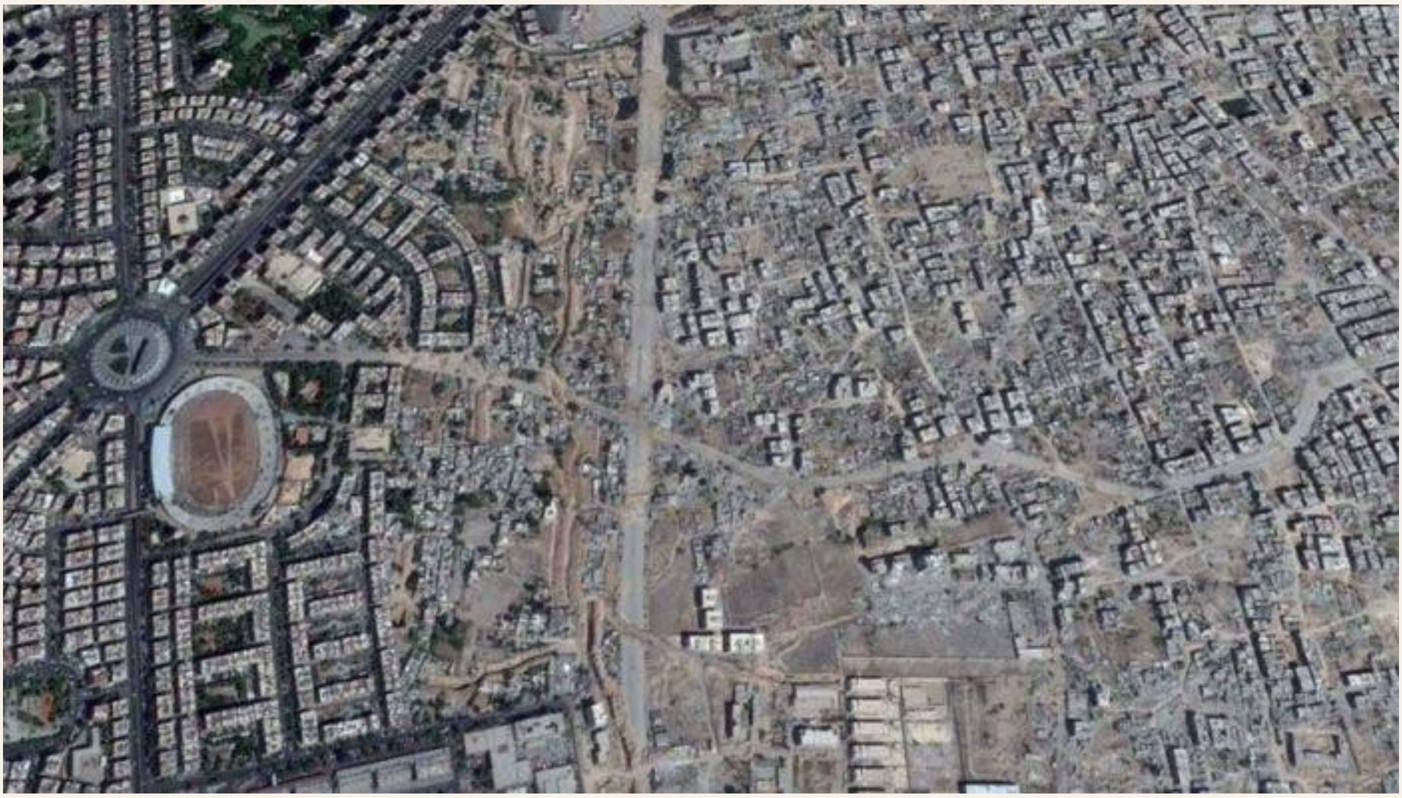

هنا نعيش

في النهار وفي الدجى على الأرض وفي العلا تحت السماء وفي الربى نعيش ولكن القدر أزاحنا إلى هامش الحياة، تقودنا عواصف الغضب العميق للأسوأ. حيينا آمنين مطمئنين، فجأة هبت نار الحرب علينا وشوهت قلوبنا،

لم تنطفئ نار الحرب أبداً اشتعلت بكل الناس العزل كان لهيبها يكوي الدماء كان دخانها يتصاعدُ مع الصراخ، انفجرت وهي تحمل الكثير من الآهات، اشتهرت بجرح عميق كالبحار بل أعمق كان ألمهُا يحرق الدماء في القلوب كان ألمها مخبأ محاصراً كئيباً لا يعلم به إلا الخالق؛

كان الصمت مع نسيمها يحمل الرصاص وسماؤها تعج بطائرات مكبدة بصواريخ ليس لقهر البشر فحسب بل لقهر والأرامل والأيتام، حتى الشمس كانت تضيء للطائرات دربها وكان غبارها يحجب الرؤية للناظرين أما الركام فهو ليعوقَ المسعفين أثناء عملهم.

لا سيما أن الليل كان يحمل الظلام مع القذائف، حتى النجوم كانت تضيء ما حولها فقط، لم يكن الشروق هادئاً قط كنا نغسل وجوهنا بماء الغبار؛ وفي الضحى كان الغدر يضحي بأنفسنا؛

كانت الايام تطفح بالقهر؛ والشهور تفيض بالدماء، والسنوات كانت تجمع الدماء مع القهر لترسم موتاً بالأشلاء،

لم يختلف شيئاً سوى أن العدو كان يستشرس لحظة بعد لحظة كانت الأمم في الخارج قد أصيبت بصممٍ وبكمٍ وعمي كان داؤها أقرب إلى الشلل،

كان وباؤها ينتشر أكثر فأكثر، كان مرضها عضالاً كانت كل الاشياء بعيدة حتى الطفل أمسى بعيداً عن صدر امه، مازال الأمان بعيداً تائهاً عنا كان الخوف والموت أقرب إلينا من حبل الوريد.

ما فعل الحاضر بك يا دمشق!

إنها دمشق أم الياسمين في الماضي. هناك حيث تطوف الحمامات حول مئذنة لا شيء يعلوها سوى

أصوات التكبير؛ حيث النسائم تفسح ضيق الصدور والسماء الزرقاء تسقي النفوس الجافيات، والسحابات البيضاء الناصعة تثلج الصدور. فعندما تتحد الغيوم تهطل الأمطار ولا تهطل وحيدة إنما يهطل معها السكينة والطمأنينة، فالهواء فيها حرٌ طليق يدخل في مسامات الجلد لينعش كل بأس.

يكاد يترسخ في مفكرتنا، أما عن الجدران فإنها لكي يتوكأ الأطفال والشيوخ وحتى الأعداء، والشمس دفؤها كدفء الأم لطفلها وأشعتها الذهبية السحرية فإنها تخرق دموع الحزن والفرح لتجعل من الدمع لؤلؤاً يضئ ما تحت الثرى، أما عن الأرض فهي خصبة للمحبة وقاحلة للظلم طاهرة حنون، رقيقة على أقدامنا القاسية، أما عن سلسبيلها فإنه لا يروي ظمأ العطشان فحسب بل يروي الشوق والأمل ويبعث الإخلاص. والجبال في الأرض فيها فهي شامخة وكأنها تحميها من كل جانب، والأنهار والينابيع فهي رقراقه تشق سبيلها لتصل إلى أصقاع الارض، سهولها الخصبة الخضراء التي تحيي النفوس وتبعث براعم من الرقة والحب؛ لتحيا على غصن الحياة الذي يتغذى من صدره الرحب ويبني صروحاً من الأمل والسلام والحنان والإسلام؛

إنها أمُ الياسمين الأبيض الفواح لا يستنشقنه عليل إلا ويرتاح. أتعلمون من هي إنها (دمشق) في الماضي. فلا شيء كان يشبه دمشق، دمشق الآن تتألم ولا تتكلم، لا أحد يسمع صوت نحيب دمشق سوى أبنائها، إن صوتها قد أصبح مبحوحا وهي تنادي واا معصتماه. الدخان الأسود قد أعمى عينيها، عبراتها جفت في مقلتيها. سماؤها أنهكتها الطائرات، منذ سبع سنوات مضت قمنا بثورة تطالب

بالحرية والكرامة بدأها أطفالنا...ليكملها شبابنا، الكل دفع الثمن فمن لم يدفع بجسده دفعه بعائلتهِ أو ببيتهِ. الجميع تجرع من تلك الكؤوس التي لا تكاد تنتهي ليملأها من جديد، ضحينا بالكثير لم يعد هناك شيء لنخسره ولربما ربحنا الكرامة. صنابير الدماء لازالت مفتوحة، فقد استقت الشام من دماء أبنائها بالرغم عنها. فمعقل الظلم وعقره بات في دمشق سنعمد أن نحرركِ من الكفر والطغيان وسنصل إليك مهما كلف وكان سبع سنوات، الشام والشعب يئنان. لم يستطع كل

الشعب أن يصمد فلكل شخص له طاقة فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها. فبعض أضطر للخروج من وطنه سلامة لنفسهِ، فمن هنا بدأنا بالذهول كل حكام العرب خذلونا لم نعد نصدق أحداً أبداً. باتت كلمة العرب ترمز إلينا العين عار، والراء رياء، والباء بؤس، كل هذا أصاب العرب وأعياهم. سئمنا الاجتماعات فحتى لاجئين لم يقبلوا أن يستضيفونا. نحن الذين استقبلنا الفلسطينيين والعراقيين واللبنانيين ولم

نضعهم في المخيمات بل فتحنا لهم البيوت وأكثر نحن لم نتزوج بناتهم

القاصرات، نحن لم نستغلهم ولم نضعهم في الصحراء لم نشعرهم أنهم غرباء كل ذاك وأشد. لن أشهد الناس عليكم لا... سأشهد ربي والتاريخ. دون يا تاريخ دون، وإن جف الحبر فاكتب بدمائنا اكتب أن السوريين ضاقت بهم بلادهم فلم يستقبلهم العرب إنما استقبلهم الغرب، ولم يستقبلهم

الغرب لأنهم يشفقونَ عليهم، بل لأن مصالحهم قد تتفق مع جل السوريين. يا للخزي والعار مكة أقرب إلينا من ألمانيا فمكة لم تفتح أبوابها لنا سجل يا تاريخ سجل. سنثور حتى نصل إلى حضنك يا دمشق وإن متنا فستثور أرواحنا فنحن في سبيل الله أحياء. دمشق سر ابتسامتي وبهجتي مقلتي فيك راحة نفسي وجلاء همي، نعم هرمتِ يا دمشق فالذي أصابك لم يصب أحدا قط. ابن خلدون يقول: كل دولة تصل إلى عزها ثم تهرم وتنهار لتنهض من جديد؛ فكوني مستعدة للنهوض

دهورا) ارجعي كما كنتِ يا دمشق (أيها الشام اصبري لحكم ربك فإنك بأعيننا. دمشق اصبري فإن

الله تكفل بالشام وإن ربي صادق الوعد مهما طال الأمد، فاعلموا أن النصر قادم لا محال.

درب السعادة

لطالما اختلفت حياتنا عما كانت عليه فقدنا أمورا تلازمنا، فكنا نعيش بفترة من الإضراب ريثما تأقلمت عقولنا، ربما لأن الحياة لم تعد كما كانت أو أننا تغيرنا أو أن الحياة قاسية علينا أو أننا لا نملك طاقة للصبر؟

بتنا على حلبة صراع بين الحياة والذات لذا أصبح الوصول للموجود خلف ساحة المعارك، كل الطرق تحتاج إلى نضال، كنت أحاول أن أسلك ذاك الطريق طريق السعادة الذي كان يصل إليه كل من يريد، ذلك الطريق الذي يصعب اجتيازه بهوان كان معبداً بأشواك معنوية مكبد بقيود عدم الاستقرار، حتى السعادة لم تعد كما هي، كنت أجدها في كل مكان كانت تملأ بيتي... وحارتي. كانت تشرق مع الشمس وتسطع مع القمر أما الآن قلما ابصرها، أحياناً أراها مع القهر نعم سعادة مع القهر أو إنها ليست سعادة إنما هي شيء للترويح عن أنفسنا، الآن اصبح للسعادة أوقات معدودة لم تعد تجتمع إلا بالمناسبات تلك المناسبات التي تجذبنا جميعاً إليها ،حتى ذاتنا هي بحاجة شديدة إليها قبل تجاذبنا ، نحن نريد سعادة تملأ قلوبنا وتطمئن فؤادنا وترسم البسمة على أفواهنا، السعادة التي تغلغلت في أعماقنا وتربصت في أذهاننا ؛ حاولت أن ابقى سعيداً بعيدا عن الصعوبات لكنني أيقنت أنني لن استطيع أن أملك السعادة ، لأن السعادة لا تشترى أنما

السعادة هي من صنع الإنسان لأنك أنت الذي تسكن ذاتك وتعلم ما يسرك ويزعجك ؛و أخيراً السعادة الكبرى و الصافية من الدنس ألا وهي عند رب البرية في جنة الفردوس سعادة لا شقاء بعدها.

أما بالنسبة لتلك السعادة التي نعيشها الآن فتلك هي جزء من السعادة يدعى الحياة الطيبة.

عندما أجبتُهم كيف كنا نعيش!

لطالما سُئلتُ هذا السؤال من أناسٍ كُثر، كنت أعيش في مدينة مباركة جميلة، وازددتُ فخراً لأن الله قال في حديث قدسي

"الشام كنانتي" كانت مقومات العيش متوسطةً لا ينقصنا شيءٌ سوى الكرامة، ثُرنا على ظالمنا فنِلنا ما كتب القدرُ لنا عشتُ في الغوطة الشرقية وترعرعت في أرضها من هوائها ومائها وحلوها ومرها، اضرمت شرارةُ الثورة من درعا وصولاً إلى الغوطة الشرقية.

كان خيار الثورة هو الخيار الأصح فعاهدنا أنفسنا أن نواصل ثورتنا مهما كلفت، بفضل الله قوي عودُ الثورة في الغوطة واشتدَ أزرهُ وبدأنا التوسع أكثر وصولاً إلى دمشق وأكثر، محاولات عديدة وكثيرة للنظام لعلهُ يستطيع أن يخمد نار الثورة ولكن عبثاً لا تحاول لا فناء لثائر.

لجأ جيش الأسد إلى تجربة الحصار كحصار إسرائيل لغزة بل وأشدُ قسوة. بدأ حصار الغوطة في عام ٢٠١٣

تلاشى كل شيء مِن طعام وشراب وكهرباء ونفط واتصالات وصولاً للمعدات الطبية، بدأت أسعار السلع الغذائية ترتفع مع انقراضها وحتى المياه أيضا. لم يكن هناك حلولٌ أبداً فنحن في القرن الواحد والعشرين وأبسط الأشياء حُرِمنا منها

كيف كنا نعيش!!؟

المياه

لم ينسَ الله سيدنا يوسف عليه السلام عندما رماهُ اخوتهُ في بئرٍ ماؤهُ أجاج. الماء من أهم الأشياء في حياتنا لذلك لجأ شباب كل حي إلى حفر بئر يكون قريباً من الجميع، لم تكن كل الآبار صالحة للشرب ولكن كنا مضطرين ولا يوجد بديل.

الكهرباء

لا يوجد كهرباء أبداً إلا في سياراتِ الإسعاف وبعض المشافي. فكانت الناس تضيء بيوتها بالمدخرات (بطارية السيارة) وكانت تشحن تلك المدخرة بواسطة لوحة طاقة من أشعة الشمس وليس كل البيوت تمتلك ذلك الشيء.

النفط

الشيء المهم والصعب لجأنا إلى فكرة أهلنا في غزة نجمع البلاستيك ونقوم بحرقهِ وتقطيره ليصبح نفطاً وكان هذا ناجحاً رغم خطورتهِ وصعوبتهِ وكان استخدامهُ فقط للمشافي، ولا يستطيع الجميع أن يحصل عليه لأنه كان قليلاً وثمنهُ باهظ.

الطعام

لم يعد يتوفر الخبز وهو الطعام الأساسي لنا بدأنا بزراعة الأراضي من قمح وشعير وكانت تتم سقاية الأراضي من مياه الصرف الصحي إلى أن قام النظام وقطع مياه الصرف على الغوطة وبدأت الأمور تتفاقم أكثر فأكثر قمنا

بطحن الصويا والذرة مع عرنوسها لكي نحصلَ على طحين أكثر قدر الإمكان وبعدها نقوم بخبزهم،

ولا أستطيعُ أن أنسى طعمها المُر، حتى رغيف الخبزِ لا يبقى متماسكاً إنما يفرط إلى قطع صغيرة، ويسبب الإسهال.

جربنا ان نطحن الشعير على حجر الرحى طبعاً وكان أفضل من الذرة والصويا،

وجدناهُ لذيذاً وأصبح غذائنا لسنواتٍ طوال رغم سعرهِ المرتفع،

بالنسبة للقمح كان سعرهُ باهظاً جداً ويصعب شراؤه.

الأمور الطبية

مع قصفٍ للمشافي

كانت في أردأ أيامِها مع نقص في الكوادر الطبية وانتشار الأوبئة بسبب عدم توفر اللقاحات انتشرت أمراض شلل الأطفال والحصبة وحمى التيفوئيد والمالطية وغيرها وأكثر. كان كل شيء استعماله مرة واحدة نقوم بتعقيمهِ مرةً أخرى وإعادة استعماله مرات متتالية.

مع كلِ هذا وذاك كان القصفُ والطائرات لا تهدأ أبداً

عشنا في رعب وجوعٍ وقصفٍ وخوف.

ومنا من فقد رضيعهُ بسبب سوء التغذية وجميعنا فقدنا وزننا حيثُ أنك تنظر للناس وتراهم كالعظامِ التي كسيَ فوقها الجلد ...... بُحَ صوتنا بقدرِ ما استنجدنا ولم يكُ أحد يسمعنا

حفرنا الإنفاق واستفدنا منها قليلاً ...ثم قاموا بقصفها.

تالله ما هذه الكلمات إلا لمحة من ألم عشناه لسنوات طوال

انتهىَ الحصار في الشهر الرابع عام ٢٠١٨ بعدما دمرت الغوطة وهجر أهلها.

والمؤلم والغريب أن هناك أناسا لا تعرف ما حدث في غوطة دمشق التي لا تبعدُ عن دمشقَ سوى ثلاث كيلو مترات

بقدرِ ما كانت الحياة قاسية بقدر ما كانت بسيطة

يُراودني الحنينُ إلى تلك الأيامِ القاسية، قطعة من خبز الشعير ورائحة النارٍ وماء بئرٍ

الحياةُ البسيطة أجملُ من الحياةِ المعقدة.

همسات من ذاكرة الموت [الكيماوي]

٢٠١٣/٨/٢١ يقرع ناقوس ذاكرتي الباطني بشدة رهيبة، وأعبر في تلفيف دماغي وأرى ذلك الماضي السحيق

الذي كان يكتظ بتلك الطلاسم المتأرجحة على جدار رأسي المنهك. رأسي الذي كان يطفح فيه مئات المجازر اللامتناهية، والتي يصعب تفسيرها لكثرة قساوتها

وشظفها وصعوبة اندماجها مع حياة الشعب السوري الأبي.

بجهد دؤوب ولحظات...قامت جوارحي وذهني بتفكيك تلك الطلاسم المتقوقعة داخل نفسها.

٢٠١٣ أن ذلك التاريخ كان هواؤه قد خبأ لنا في طيات نسائمهِ عبق الموت الذي تسلل إلى أجسادنا عندما استنشقناه

تقول ذاكرتي: بناء على مسترجعات ماضي

" الكيماوي " ٢٠١٣/٨/٢١ تاريخ قضم بأيامه فلذات أكبادنا

تاريخ يعيد الموت إلينا ونحن أحياء

تاريخ سحق المئات من عوائلنا.

صنع اليتامى والأرامل والثكالى والشهداء بنيف من اللحظات كم كنت قاسيا وأخطأت بحقنا أيها " الكيماوي " أتحدث ولأني كنت جزءاً من الواقعة، تتقهقر بي الذاكرة لمساء الأربعاء.... كنت أعمل ممرضاً في تلك المشفى الميداني.

كان الاربعاء يوم مناوبتي، وما إن خلدت إلى النوم حتى استيقظت من غفوتي على تلك الفاجعة

العظيمة، وقفت صامتا أحدق بعناية لا أصدق ما أرى ولا أعرف ما جرى بثوان معدودة وطرفة عين امتلأت ساحة الإسعاف بأشخاص مصابين مفجوعين. لحظات قليلة وتتزايد أعداد المصابين أكثر، إلى أن امتلأ ممر المشفى وساحتها الخارجية التي تبلغ مساحتها ما يقارب ١٠٠ متر.

والناس يفترشون الأرض، ويتنوعون بين شهيد وناج.. بين طفل وامرأة... بين شيخ وشاب، كنت أسير بينهم أكاد أصعق من هول المشهد، كنت أضع راحة يدي على شفتي اللتين ترتجفان واضغطهما، شعرت بأن عيني كادتا تنفجران من عظمة الفاجعة، كنت حينما أريد أن أمشي أرفع قدمي التي ترتجف في ارتباك وحيرة ولا أعرف أين أضعها

.. أخاف أن ادوس جسداً جريحاً أو انتهك حرمة شهيد من كثرة المصابين والشهداء. كنت أرى الناس سكارى وما هم بسكارى رأيت أطفالاً لم يدركوا الطفولة ترتديهم البراءة بعمر الأشهر، شاهدت وجههم وشفاههم الزرقاء

التي اشتمت الكيماوي ولم يصلها الأوكسجين

رأيت عروساً ببدلة زفافها

رأيت أطفالاً بلا ام وأما بلا أطفال

رأيت شيوخاً وكهولا رأيت شبابا وبنين

سمعت ما لم تسمعه أذن وتشاهده عين

لم يرحموا أحدا أبدا حتى الحجر اشتم رائحة الموت.

رأيت زملائي وأطبائي يستنشقون ويموتون

رأيت بعيني ما لم تعرف أن تكتبه يداي

رأيت ورأيت ورأيت.....

كان ذلك اليوم العصيب أشبه بقنبلة هيروشيما، كان ليلاً دامساً بالألم وساكنا بالحقد يعج بالموت يمنع الحياة ويحتكر الهواء

كان ذنبنا وجرمنا أننا نطقنا بكلمة (حرية)

ما أقبح تلك النوائب التي سربلها القدر إلينا، كم كانت قاسية على قلوب أنقى من الندى، كم كانت مجحفة بحق الأبرياء.

كم أحزنني أولئك الأطفال الذين نشقوا غاز الموت ولم يزفروه.

وتلك العروس التي كانت بفستان زفافها تنتظر فرحها وزوجها فسبقها الموت مهرولا إليها.

وأولئك الشبان والكهول والسيدات والمسعفين والذين غفل عنهم قلمي ناموا ولم يستيقظوا. لم يكن هناك سوى تلك الدموع التي كانت تغبش رؤيتنا ونحن نسعف المظلومين وتلك المشاعر التي تُرجف ايدينا والصرخات التي تكوي قلوبنا

والأطفال التي جعلتنا نشهق من بكائنا والنساء اللواتي مزقزقن فؤادهن والشباب الذين كووا أكبادنا. ذلك اليوم العصيب....

جعل عدونا يمزقنا بعنفوان وفن متقن وما من أحد يمنعه من ذلك

كان ذلك المجرم يبدع وهو يؤلمنا كان الموت كالوحوش التي تقضم الزهور بعشوائية مطلقة فذة

عندما تتلفظوا وتتحدثوا عن غوطة دمشق وخان شيخون ابدؤا بكلمة الله أكبر...، وحينما تنتهوا اختمواها بالسلام عليكم ورحمة الله، تماماً كما تفعلون في الصلاة.

لعل سلامكم يصل لأرواح تشكو لربها ظلم البعيد وخذلان القريب.... وداعاً بلا لقاء أيها الحرب الكاوية، وسلام علينا يشبه سلام النار على سيدنا ابراهيم. الخليل..

وسلام علينا يوم نولد ويوم نموت ويوم نبعث أحياء . . . . .

. . . .

جرح لا يلتئم

في تاريخ ٢٠١٢/٨/٢٢

في إحدى الأيام الماضية كان هناك عائلة بسيطة لها طفل جميل يتصف بوجه شكور أبيض وشعر كالحرير في لونه وملمسه ذو عينين واسعتين براقتين يملؤهما لون بني مائل للأسود،

ووجنتان كالتفاح وشفتان ورديتان من مواليد ٢٠٠٢ يدعى سيف الدين كانت عائلة سيف تحبه بشدة كونه الحفيد الأول لهم كبر قليلاً فدخل إلى المدرسة في مرحلة الروضة، في كل يوم كان يلبس تلك الصدرية وحقيبته الزرقاء ويستمر برحلته للمدرسة في هذا الوقت كانت عائلة سيف يفيض منها

السرور والروعة لأن سيف بدأ يترعرع وينضج في الحياة. يأتي ذاك الطفل من المدرسة ويروي لذويه ما حصل في مدرسته كانت العائلة تنبهر بطفلهم عندما بدأ بحفظ الأحاديث وحفظ سورة النبأ ويتعلم الحروف عندما يتلو شيئاً مما تعلمهُ تنصت العائلة إلى هدير صوته، سيف رغم نعومة أصفاره وبراءته كان خفيف الظل حين كان يأتي ضيوف لعائلة سيف كان يحدثهم بشكل هزلي ويقول لهم (كيف أمك، شو طبخت أمك وين أبوك. مشان واجبك) تتتالى الكلمات على لسان ذلك الطفل البريء

، بينما كانت عائلة سيف تحضر وجبة الطعام في وقت الغداء فجأة تلقي الطائرة صاروخاً على بعد

مترين من بيت تلك العائلة وبدأ الغبار والردم والتراب والزجاج ينهال في سماء المنزل وبعدها تضرر البيت بأضرار مادية وبعد ذلك تنخفض نسبة الغبار ويصعد عمه الصغير إلى الطابق العلوي وكان مملوءاً بالخراب في حين كانت والدة سيف تحمله وتحمل أخته الصغيرة أخذ (العم)

سيف وكان يسيل الدم من رأسه ركض العم متجها إلى المشفى وهو مسرع بينما كان عمه

يحمله ويركض قال سيف لعمه) أنا بحبك أنا بحبك محمود (ففاض الدمع من عيني محمود. ش

وبعدها دخل سيف المشفى وأصيب بإصابة خفيفة في رأسه ومن ثم خرج إلى البيت وكانت عائلته

تنتظره على أحر من الجمر فاستقبلتهُ بكل حب إخلاص وعافية عندما عاد عمه شاهد سيفاً يجلس على طاولة خشب وكان الغطاء يستره وكان رأسه ملفوفاً بتلك الشاشات التي تلطخت بدمائه البريئة، فركض إليه واحتضنه وهو يبكي ويحمد الله أنه بخير وبعد ذلك تحسن الطفل بفضل الله وتستمر الحياة وتتابع المسير؛ سيف ذلك الطفل الذي

يسلب عقل عائلته حماه الله. بين رفة جفن وغمضة عين مرض سيف واعتقد أهله أنه مرض سارٍ كان سيف يجلس وكان لون وجهه شاحباً عرض سيف على عدة أطباء في تلك المنطقة التي كان سيف يعيش فيها كانت محاصرة لظروف الثورة [الغوطة الشرقية] وكان إحصاء عدد الأطباء قليل

بالنسبة إلى السكان ولا يوجد الدواء اللازم، في كل يوم كانت حالة سيف تتأزم أكثر فأكثر وتتراجع للوراء كان يعاني من ضيق حاد في نفسه وألم في بطنه ولون أزرق على شفتيه كان وضعه مؤلماً للغاية وأصبحت قدماه تملؤهما الوذمة ووجهه توزم (الورم) وبعدها...... لم يعد يستطيع المشي وغرقت أسرة سيف بحزن وهم ونكد وتعب لم يتركوا أي وسيلة

ليقدموا شيئاً لسيف؟ وفجأة وبمعجزة من الله أستطاع سيف أن يخرج من المنطقة المحاصرة ولكن خرج هو وجدته لم تسمح الظروف أن يخرج أحد من والديه ومن ثم ذهب إلى مشفى الأطفال وهناك كان يتوفر كل شيء وفي كل حين كانت أسرة سيف الباقية في الداخل يجرون اتصالات

عديدة رغم صعوبة الاتصال ليطمئنوا عليه كانت جدته تكلمهم وأحيانا كان سيف يكلمنا ولكن حين يتكلم يلهث كثيراً ويبدو متعبا كانت حالته متوسطة بعض الشيء عندما كنا نكلم جدته كانت تروي لنا أن وضع سيف الصحي متأزم قليلاً ولكنه أفضل مما كان عليه. كانت العائلة مرهقة في الانتظار على أمل عودة ذلك الطفل إلى دياره سائلين المولى أن يشفيه، وبعد إجراءات عديدة من التحليل والصور تبين أن سيف أصابه) تليف رئوي (يجب أن يخضع سيف لخزعة في الرئتين وكان الخطر من حوله وكان أبوا سيف في حيرة من أمرهما

وهموم طغت على قلوبهما لا محال من الخزعة وبعد موافقتهما تم أجراء الخزعة و روت الجدة ان سيف بعد الخزعة دخل العناية المشددة في حين لم يسمحوا لها أن تبقى

معه وفي صباح يوم الاربعاء ٢٢ أب كانت أم سيف تبدو حائرة جداً وكانت تريد أن تكلم ابنها فهتفت لجد سيف ليصعد معها للطابق العلوي لتطمئن على طفلها فخرجا واتصلت والدة سيف بجدة ابنها وعنده رد شخص غريب وتتفاجأ الوالدة وتقول من أنت وين (مرة عمي عطيني ياها وهو يجيب أنا صهرك، زوجك معك أجابت لا قال من معك اجابت عمي في حين كان الميكرفون قيد التشغيل فتكلم مع جد سيف وقال له ..... سيف.."""""عطاك عمره وسمعت ولداة سيف هذا وصرخت بذلك الصوت المرتفع يااااااالله وهي تبكي وتركض لترمي بنفسها من الطابق العلوي فأسرع الجد إليها وامسكها ودموعهما تهطل بغزارة وبحرقة أشد من النار الأسرة بأكملها ظنت بعودة سيف على قدميه وبشفائه وعلى أمل اللقاء ولكن]عجز الاطباء عن شفائه ولم يأذن الرب بمعافاته[بسبب صعوبة الظروف لم تستطع الجدة إدخال جثة سيف لعند والديه غادر بعيداً عن الجميع دفن بعيداً عن أمه لم تستطع والدته أن تودعه وتحضنه ذهب وبقيت لوعة في قلبه من الصعب أن يموت الطفل ويدفن بعيداً عن أبويه رحمه الله بأذن الله سيكون طائرا من طيور

الجنة نسأل الله يبرد قلوبنا

يرحلون ويتركون بصمة على جدران الحياة ومنهم من يضع بصمته وهو على قيد الحياة.

مائة وواحد من عظماء أمة الإسلام

تختلف حياة العظماء عن سائر حياة الناس فعادةً لا تكون حياتهم ساكنة هادئة.

وتكمن العظمة في الاقتداء بالعظماء

فلتصبحَ مثلهم عليك أن تجلس معهم ولحال ندرتهم وقلتهم في وقتنا الحالي عليك أن تجلس مع سيرهم أي أن تقرأ كتبهم وتفهم حياتهم.

سأتكلم عن عظيمٍ لا يختلف كثيراً عن رفعاء التاريخ، عظيم تعلم من عظمائه السابقين وجعل تاريخهم مرجعاً له. عظيم خلع رداء الذل الذي أرغم عليه أجداده، فكسر حاجز الصمت، وأراد أن يعيش كالبشر لا كالشعوب إنه الشعب السوري الحر العظيم.

لا يمكن حصر معاناة السوريين أبداً فهناك آلام أعمق من التي نراها وهناك قصص أكثر من التي نسمعها؛

فهنا قمت بربط معاناة الشعب السوري ببعض من معاناة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم،

الرسول (ص) أعظم من أن نقارن أنفسنا به،

والغرض من ربط معاناة السوريين مع معاناة الرسول الكريم، هي التصبر والاحتساب، وترسيخ الإيمان بأن أشرف الخلق مر بالمحن التي قد تشبه نوائبنا.

الحصار

فرضت قريش على محمد(ص) وأصحابه عقوبات عديدة ومنها وأشدها كرها الحصار،

عقدت قريش اتفاقية مع القبائل بأن يحاصروا الرسول وأصحابه لعلهم يرضخون يتراجعون عن إسلامهم، استمر الحصار لثلاث سنوات فأصبحوا يلتهمون أوراق الاشجار وغيرها، إلى أن أذن الله تعالى وفرج عليهم بحشرة تدعى الأرضة، فسياسة الإكتناف هي من أصعب العقوبات التي تفرض على المحاصرين فهو أسلوب حاد تتبعه الدول منذ آلاف السنين...

فلجأ نظام الأسد إلى خطة قريش وأصحابه فقام بحصار بعض السوريين ... فأجبروا على أكل أوراق الاشجار وطعام الحيوانات وبعضهم مات من قلة الطعام، فكلما اراد ذلك الشعب أن يخفف عن نفسه تذكر حصار الشعب على الرسول وأصحابه؛ اللهم كما كسرت الحبس والحصار عن محمدٍ وأصحابه اكسر حصار الغوطة وكل المناطق المحاصرة في سوريا.

التهجير

عندما تآمرت قريش واحاطت المتاعب والمكائد بالرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم، قرر الرسول ومن معه للهجرة من مكة إلى يثرب، فعندما هاجر الرسول كانت هجرته لخير حيث استغرقت سفرته فترة ١٠ سنوات وعاد فاتحا لمكة بكم هائل من الصحابة، فكانت الرحلة ليشتد أزر المسلمين. فالسوريون هنا تكالب عليهم الناس واستضعفوا، من استطاع منهم أن يقاوم قاوم فاستشهد، أجبروا على الهجرة عنوةً وتركوا وراءهم بلادهم وبيوتهم وذكرياتهم.

لم يجدوا عظيما ليتصبروا به سوى أعظم الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، فلعل الله أن يمن عليهم ويعودوا إلى سوريا منصورين.

الشهداء

تماضر بنت عمرو السلمية (الخنساء) التي خلد أسمها التاريخ ليس فقط لأنها شاعرة العصر الجاهلي، بل لأنها صبرت على فقدان أولادها الأربعة، لو تعرفين يا تماضر كم هناك من خنساوات سوريات لا تعد ولا تحصى.

الخنساء التي أكرمها الله بالإسلام فكان للإسلام مكانة عظيمة في قلبها وهذا مما ساعدها على أن تصبر وتحتسب لله عز وجل ولهذا اقتدى بها خنسا واتنا السوريات.

الصبر

عندما قامت قريش وانتهكت وقتلت آل ياسر لأنهم كفروا بالطاغوت واسلموا لله.

قتلوا أسرة عمار بن ياسر قتلوا أباه وأمه أمام عينيه، فحينها قال عليه الصلاة والسلام "صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة"

علمتنا يا عمار الصبر فتعلمنا.

كم يتكرر مشهد آل ياسر وغيره في سوريا،

فيومياً يفقد الآباء أبناءهم ويفقد الأبناء أباءهم فقط لأنهم أرادوا الحرية.

فصبرا أهل سوريا فلعل موعدكم الجنة.

كما علمنا رسولنا الأعظم على الثبات على الحق، فعندما عرضوا عليه الاموال والنساء قال "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته" وبعدها حاربوه فلم يتراجع عن الدين.

لو ترى يا حبيب الله ما فعلوا... فإنهم وضعوا الطائرات في سمائنا والصواريخ في أرضنا على أن نتراجع عن ثورتنا فكنت أنت قدوتنا العليا يا رسول الله ولم ولن نتراجع إلا بإذن الله

إن عظمة السوريين تكمن في اقتدائهم بأعظم وأنبل رجل عرفه التاريخ فكان الرسول الكريم معلمهم في الماضي وكان تاريخه أستاذهم الحالي.

فكان رقم الشعب السوري من العظماء واحدا بعد المائة.

عاركتُ الموتَ فانتصرت

٢٠١٢/١/١٩ تاريخٌ حطَّمَ شبابي حطَّمَ مستقبلي حطَّمَ ذاكرتي وأحشائي، حطَّم كل شيءٍ يتعلق بنفسي كان ذلك التاريخ من اسوأ أيامِ حياتي.

أقطنُ في الغوطة الشرقية كنت أدرس الفلسفة وأصول الدين في السنةِ الأولى من الجامعة الموافقةِ لسنةِ انطلاقة الثورة أيضاً.

تُحدثني ذاكرتي بما كان يحدث فتقول الذاكرة: كنت في طريقي إلى صلاة الجمعة أمشي في الطريق مبتسماً للهواء والشمسِ وانتظرُ على أحرَّ من الجمرِ لتنتهي صلاة الجمعة كي نُكملَ في مظاهرات الثورة على طاغوتنا، كنتُ أسمعُ صوت المؤذن وفجأةً وبلمح البصر أُصغي إلى صوتٍ قويٍ غريبٍ لم أسمعه من قبل، ببغتةٍ سمعتُ صوتاً قد صعقَ سمعي، رأيتُ غباراً أغلقَ بصري، لقد كان ضغطُ الصاروخ رهيباً، إلى أن توقفت ذاكرتي ولم تعد تتذكر شيئاً، ثمَّ فقدتُ الوعي.

بعد عدةِ أيامٍ توقظني ذاكرتي فتدهشُني بأنني لا أزالُ حيّاً، دُهشتُ بنفسي فلم أعد أعرفها، سألتُ نفسي من أنا ولماذا أنا على هذا السرير، هل انتهت صلاة الجمعة، لماذا كلُّ هذا الشاشِ الذي يكتنفُ جسدي، وما هذه الأنابيبُ التي تخرجُ منه؟ لماذا نصفيَ الآخر لا يتحرك؟ لا أنكرُ بأني بكيتُ بحرقة.

كانت إصابتي بليغةً، كانت الشظايا أصابت الحجابَ الحاجز وأصابت الطِحال مع إصابات عديدة في جسمي، قالوا لي أنني عندما كنتُ في غرفةِ العمليات فجأةً توقف قلبي لمدةِ خمسة دقائقَ مما أدى إلى نقصِ أكسجةٍ في الدماغ فأصِبتُ بخذلٍ (شلل) شقي أيسر، من هنا بدأت مسيرةُ اليأسِ، ومنذ سنواتٍ وأنا أتلقى العلاجَ وإلى الآن، لا أعلمُ إذا كان للعلاجِ مكانٌ في جسدي، تعبتُ وتعبَ قلبي، إلى الآن يصعبُ عليّ أن أستقر مع نفسي.

بعد أشهر معدودةٍ مع معاركِ المرض، أمسيتُ أمشي بصعوبةٍ متكئاً على آلامي، لا أستطيعُ التوازنَ جيداً ولكنِّي أمشي. ذهبتُ إلى المشفى رآني طبيبي في رُدهة المشفى، لم يُصدق أنني أنا (إبراهيم)، رغم كِبَرِ سنهِ هرولَ نحوي ثمَّ احتضنني حضنه الأب لولده وصار يبكي بصوتٍ خافتٍ حتى أنا بكيت معه وفرحتُ لما أنجزت، شكرتهُ وأثنيتُ عليه بالشكر فقال لي أشكرِ الله الذي عافاك.

أيقنتُ بأن العجزَ هو عجزُ النفس لا عجزُ الجسد، حفظتُ القرآن الكريم كلَّهُ في الغوطة، ثمَّ تطورتُ أكثرَ وأصبحتُ مدرسَاً لمادة التجويدِ، وبفضل الله بدأتْ تينعُ زهورُ التعبِ التي زرعتها.

الآن أنا مُهجرٌ أعيشُ في الشمال السوري أدرسُ الحقوقَ في جامعة حلب الحرة، وأسعى إلى الأفضل بإذن الله طارداً اليأس من جسدي بفضل الله.

هذه هي قصتي ببضع كلمات مختصرة، لن أقطعَ أملي بربي فهو أبقاني حياً لأن لي قسمةً من الحياةِ لأستنشق من أكسجينها.

-كانت تلك معركتيَ العصيبةَ مع الحياة فانتصرت فيها.

أحببتُ أن يكون لي دورٌ في المجتمع ويكون لي بصمةٌ مميزةٌ على جدرانِ الحياة وكان.

إنها جزء من قصةِ نجاحي الحقيقية، وأنا أقراؤها مراراً عندما أفقدُ الأمل، فلا تفقدوا الأمل

إليك يا لبنان

٢٠١٧/٥/٥ عندما كتبت ذلك العنوان صمت قلمي وحروفي لدقائق ونيف.. ثم بدأ ينساب ويملأ الصفحة

البيضاء وكأنه يعلم ما اريد أن أدون.

حينها علمت بأن الجماد بدأ يشعر بالسوريين..

ولم يكن قلمي السوري ليزعج أحداٍ أبداً،

قلمي السوري كان ليخط الذكريات بألوانها ويوثق الحروب ويسجل التاريخ وما زال قلمي اليوم يكتب ما يؤلم ويقهر ويزعج ويهين أبناء وطني.

ترتكس ذاكرتي لعام ٢٠٠٦ عندما اضرمت نار الحرب الملتهبة في لبنان، كنت صغيراً وقتها لكني

شهدت تألم لبنان الصديقة وما فعل بها الصهاينة.

كان لها نصيبٌ أليم من أهوال الحرب الكاوية

فهذا ما أجبر بعض اللبنانيين على الهجرة إلى سوريا كونها الدولة الشقيقة لها وكما أنها تتصل بها

جغرافيا؛ فعندما بدأ اللبنانيون بالقدوم إلى سوريا شاهدت كيف استقبل السوريون إخوانهم اللبنانيين

بصدر رحب وواسع، أذكر بأننا فتحنا لهم بيوتنا وقلوبنا لأن هذا واجبنا طبعا؛

لم أسمع والدي يقول هؤلاء نازحين إنما كان يقول إنهم ضيوف

لم أذكر ولم ترَ عيني أننا وضعناهم في الصحراء أو على الحدود،

لم يكن هناك خيمة واحدة يقيم فيها لبناني

لم نرمِ بنسائهم الحوامل أمام باب المستشفى ليلدوا في الطريق.

لم نطلب منهم فيزا أو جوازات سفر وكفيل واقامات ووو...

قدمنا لهم ما بوسعنا....

لم نخرج بمظاهرة لأنهم عملوا معنا،

لم نسئ لهم بمسلسلاتنا....

لم نتزوج بناتهم القاصرات لم ولم ولم.......

في المرحلة الاعدادية درست بأن لبنان هي دولة الحضارة والسياحة وكان ينجذب السياح إليها لأن

شعبها مضياف وكريم، اعتقد ان هناك خطأ مطبعياً بذلك الكتاب.

إليك يا لبنان وجهت كلماتي..... بقلمي ودموعي وألمي

لماذا يا شعب لبنان العظيم ..... الآن أصبح السوريون عالة عليكم ...

" صحيح نحن من سرق لقمة الطعام من فمكم " كنت أتمنى أن أرى على وسائل الإعلام اللبنانية أن تمدح السوريين بشيء ضئيل... لكن هم الذين

خربوا لبنان ووخربوا بلادهم وهم سبب ثقب الأوزون كما زعمتم

عندما تذكر لبنان امام سمعي يغص قلبي لما يعيش السوريين من عذاب هناك لو أن بلادنا عامرة

لما أتينا إليكم؛

بالأمس لقد نشر على وسائل التواصل اللبنانية

ممثلة لبنانية تقول للسوريين في #لبنان:" اللبنانية عم بيموتوا بسوريا تيحموا أرضكن وعرضكن..

افرقونا بريحة طيبة " لقد قرأت هذه الجملة أكثر من مرة لعلي أجد لها تفسيرا يقبله عقلي...

هل تقصدين أن حزب الله الذي يساند نظام الأسد بإبادة شعبه السوري؛ حزب الله الذي يهتك

أعراض السوريين ويدمرهم ويحاصرهم عن ماذا يدافع اللبنانيون في سوريا؟؟إنهم يدافعون عن

مصالح إيران الخبيثة،

نعم أو ربما ستزول الأزمة ونفرقكم برائحة طيبة حزينة ولكن اعلموا أن نوائب الدنيا تدور ...

أيها اللبنانيون إذا ضاقت بكم الأرض لن ولم نفعل بكم كما فعلتم بنا سنعمل بأصلنا.

الأمبولة الأخيرة

"أمبولة واحدة فقط لا غير". هذا ما تلفظت بهِ الدكتورة وسام الرز وهي تخبرنا عن حال مركز العلاج الوحيد للسرطان والأورام في الغوطة الشرقية المحاصرة.. كانت تخرج الكلمات من الطبيبة وشفتاها ترتجفان تبتلع غصة البكاء وعيونها تلمع من الدموع المقيدة.

استوطن مرض السرطان في أجسام الكبار والصغار دون أن يسألهم ويعرف مدى معاناتهم مع الحياة المريرة.

اشتدّت وطأة الحصار على سكان المنطقة الجوعى، فلم يعد بالإمكان أن يؤمنوا حاجاتهم وطعامهم وأدويتهم، وحتى الهلال الأحمر هو عاجز على أن يقدم لهم أية مساعدة

نعم؛ إنها أمبولة الكيماوي الأخيرة في الغوطة الشرقية.. لقد نفذت جرعات الكيماوي في أجسام المرضى الذين أنهكهم مرض السرطان. لقد نفذت الجرعات ولم ينفذ السرطان من أجسادهم النحيلة المحاصرة.

إنها الأمبولة الأخيرة التي ستسري في أوردة مريض السرطان الذي يلتمس أملاً بجرعته، إنها الأمبولة الأخيرة التي ستقتل جزءاً من خلايا السرطان الخبيثة، نعم إنه السرطان اللعين الذي لا يموت بالأمبولة الأخيرة.

كنت أتساءل لمن ستكون تلك الأمبولة التي يتحدثون عنها، هل لذلك الشاب الذي نهشَ السرطان قدمهُ، أم لذلك الطفل الذي التهم السرطان دمهُ، أم لتلك المرأة التي أنحلها سرطان الدم الأخير

ربما إذا كانت الأمبولة الأخيرة لذلك الطفل ستمنح القوة وترسم على عينيه البراقتين أملاً جديداً وليستمد من الله حياة متواضعة كباقي أطفال الغوطة، وربما تكون الأمبولة الأخيرة لذلك الشاب الذي ربما ستنقذهُ من بتر قدمه. وربما وربما.

إنهم ٥٥٩ مصاب بالسرطان فكيف تكفيهم الأمبولة الأخيرة، أمبولة واحدة فقط لا غير للغوطة التي تنقسم إلى شقين.

إن معظم المرضى في المركز رفضوا أن يأخذوا الأمبولة الأخيرة بل كل شخص آثر الآخر بها، لم تقف الأمبولة حكراً عند أي أحد لا طفلٍ ولا شيخٍ ولا شاب، بل عُرضت على عدة مرضى وأخيراً وقفت عند أبي مرزوق الذي سيودع قدمهُ وربما سيودع أولاده وعائلتهُ خلال أيام، فلا دواء والعالم أجمع يقف أبكماً..

هل نستطيع أن نحاصر السرطان مثلما يحاصرنا الأسد، ينتقل قلمي إلى أم عمار وهي تقول: "عندما أحتاج لجرعة كيماوي أشعر بصعوبة بتلفظ كلمة كيماوي، إذ أن أثر تلك الكلمة أراها على قبرِ ابني الذي استشهد خنقاً بغاز السارين"..

منذ متى وأهل الغوطة محاصرون مكلومون صامدون، هناك الكثير والكثير من الأمور الأخيرة فهناك حبة قمح أخيرة،

وهناك عبوة حليب أخيرة، وهناك أطفال وأمهات أخيرة، وهنالك أرواح مظلومة أخيرة.

ليسا بشراً لكنهما توأم

كثيراً ما نسمعُ بالمثلِ الشهير "يخلق من الشبه أربعين "

أدركت مع الأيام أن الشبه ليسَ فقط بين البشر

فهُناك توائم تُنسجُ خارجَ الأرحام.

كالتوأم الذي أتكلم عنهما، إنهما توأم يتشابهانِ بالشعب والأسس الاجتماعية والسياسية فهما يتشاركانِ في نفس المعضلة أيضاً.

إنهما اثنتان .... مدينتان توأم يتشابهانِ بكل شيء

ببساطة هما [غزة والغوطة الشرقية]

لعلهما بعيدتانِ عن بعضهما جغرافياً ولكنهما

شريكتانِ ليس في الدين والشمس والسماء والأرض والهواء فقط، بل إنهما نسختان عن بعضهما في الإسلام والسنة

والحصارِ والقصف، والخوف والهلع، والدمار والظلم، والشهداء والجرحى، والتهجير والاضطهاد، والركام والضعف، والحرمان من أدنى الحقوق، وعدم الرضوخ والهوان،

كلتاهما عظيمتان فلم يصبحا توأما بهذهِ البساطة.

انفصلت غزة عن الضفة الغربية في عام ٢٠٠٧

وبعدها فظَع بها الإسرائيليون.

أما الغوطة فُتم فصلها عن دمشق بنهاية عام ٢٠١٢ وتم تهميشها مع أهلها الذين يقطنونَ بداخلها.

غزة التي لطالما كان لها طابعٌ عنوانهُ اللاخنوع، غزة التي أبت أن تكون تحت سيطرةِ الصهاينة، حُوصرت غزة منذ ١٥ سنة وإلى الآن، غزة التي رفضت أن تُغتصبَ أرضها وأرض القدس، غزة التي حاصرها اليهود وشارك في حِصارها بعض الدول العربية ومنعوا عنها كل شيء

الماء والغذاء والدواء والكهرباء.... غزة رمز الصمود، كان سبب حِصار غزة هو خلاف حركتيِ فتح وحماس تلك الحركتانِ اللتان لطالما وقفتا لنصرة الشعب الفلسطيني من كيد اليهود وخُبثهم، رفضت غزة أن تكون ملجأً لليهود لكيلا يدنسوا أرض فلسطين الطاهرة شقيقة غزة الغوطة المحاصرة

الغوطة الشرقية التي أصبحت منارةً لجُل الناس ، تبعُد الغوطة الشرقية عن دمشق حوالي ٢ كيلو متر، ويعود سببُ حصار الغوطة لأنها ثارت في وجهِ نظام الأسد الذي كان محضناً للفتن والظلم وقتل الأبرياء العُزل، حصلت انشقاقات عديدة في جيش الأسد إلى جانب الثوار ، فكان دور الجيش السوري الحر ، درء الفتن وحماية الثوار من بطش الأسد ، بدأ

حصارُ الغوطة منذ ٢٠١٢ فبدأت ميليشيات الأسد تطبق الحصار على أهل الغوطة ، وذلك خوفاً من امتداد الثورة إلى دمشق ، قطعت ميليشيا الأسد عن الغوطة الكهرباء والماء والدواء وخدمة الهاتف الخليوي والأرضي، وقطعوا كل شيءٍ يمُت للحياةِ بصلة، ولو أنهم استطاعوا قطع "الأوكسجين" والشمس عنا لقطعوها ، كان لصمودِ غزة أثرٌ على نفوس السوريين لذا أرادوا الصمود في وجه المفسدين .

لم ترحم طائرات الكيانِ الصهيوني أهالي غزة ولم تفرق بين طفلٍ ومدنيٍ وبريء، وميليشيا الأسد اقتدت بإسرائيل وضربت شعبها السوري بالطائرات والقذائف والصواريخ، تمادت إسرائيل وقصفت غزة بالفوسفور.

فكان الأسد أقسى من اليهود وضربَ الغوطة بغازات كيماوية عديدة، كم من عائلةٍ فلسطينية وسورية

قضت نحبها تحت رُكام منزلها، كم من طفلٍ مات وهو رضيع، كم من أمٍ استُشهدت هي وجنينها، كم و وكم وكم..... هناك الكثير الكثير من القصص الانسانيةِ التي دُفنت تحت الركام.

الأسد واسرائيل آلتان مِن آلات الحرب لا تتوقفان أبداً فهما مدعومتان دولياً.

تحدثني نداء تلك الفتاة الفلسطينية الفاضلة، تكلمني عن غزة وأكلمها عن الغوطة فكلتاهما محاصرتان وتوأم.

تحدثني نداء عن حصارِ غزة وفي صوتها لوعةٌ مؤلمة عن المحاصرين، تقول نداء أن عدد الشهداء المدنيين قد بلغَ ٢٠٠٠ مدني، كُنت أطرح اسئلةً عديدةً على نداء وأنا في الغوطة لأقارن بين الحياةِ في غزة والغوطة.

سألتها عن المعابر فقالت: هناك ثلاثُ معابر في قطاع غزة بيت حانون ورفح وكرم أبو سالم ولا يستطيعُ المدنيون ولا حتى المرضى الخروجَ من المعابر إلا بتعقيداتٍ معقدة جداً، تسألني نداء عن معابر الغوطة:

في الغوطة لا يوجد سوى معبر وحيد هو "مخيم الوافدين" وهذا المخيم هو شكلي فحتى الهواء لا يمكنهُ أن يدخلهُ، فهناك مرضى وأكثر من ٥٥٩ مريض سرطان يحتاجون للإخلاء ولكنهم محرومون،

تركت ميليشيا الاسد هذا المعبر لتبادل الاسرى من جيشها الذي يقتل شعبه.

أسأل نداء عن كيفية تأمين المؤونة ووضع التعليم في غزة

تجيب: يقوم أهالي غزة بحفر الأنفاق لتأمين مواردهم الغذائية، هناك مدارس ومعاهد متوسطة وهي تتبع للانروا unrwa

أما في الغوطة: في الماضي كان هناك أنفاقٌ ولكن نظام الأسد قام بقصفها، حالياً يعتمد السكان في الغوطة على الاكتفاء

الذاتي ولكن التكليف باهظةً جداً، أما عن التدريس هناك مدارس وكليات تتبع للائتلاف السوري

كان هناك آثار جانبية عديدة للحصار وبدأ ظهور تلك الآثار على كلا المدينتين، فبدأت الأوبئة والأمراض وانتهت بالمجاعات المميتة، أيها التوأم

"اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون"

صبراً يا أهلَ غزة ويا أهلَ الغوطة فإن موعدكما النصر والجنة.

من أنا

رفعت جفوني عن مقلتي وجدت نفسي في ظلام حالك، لا أعرف من وأين أنا؛

بدأت بتلمس الأرض وصولا إلى الجدران، أتتبع ذاتي وأسمع شهقات تنفسي وأتحسس بأناملي

عن المراد، كنت أريد أن أصل إلى مرآة لكي أعرف من أنا.

كان صدى أفكاري يصطدم بجدران جمجمتي ويكرر من أنا؟

أجبت.....

أعتقد أني ابن نوح عليه السلام، أنا ابن النبي نوح الابن العاصي الذي لم يؤمن برب أبيه، أنا

الذي هربت إلى أعالي الجبال لأهرب من قضاء رب نوح، رغم أن نوحا أبي دعاني إلى سفينته

لعلي انجو من الطوفان؛ لكنني لم أعص أبي فقط بل عصيت نوحا ورب نوح، كان أبي يعرف

مصلحتي لكنني لم اعرف. مصلحة نفسي وهلكت غرقا بالذنوب والمعاصي. كلا ربما أنا من إخوة يوسف عليه السلام؛ إنني شاركت برمي أخي يوسف في الجب، نعم اقترفت هذا الجرم نعم كنت أكن بغضا ليوسف، ليس أنا وحدي بل أنا وسائر أخوتي، جميعنا مذنبون

ومشتركون بنفس الجرم، نعم كلنا كذبنا على أبينا يعقوب النبي، حتى يعقوب عليه السلام كان

يعرف أننا نكذب، نعم نحن أولاد النبي كذبنا.

هل أنا فرعون الذي طغى وقتل الذكور؛ أنا الذي ادعيت الألوهية وقد مد الله لي مدا وما

زادني ذلك إلا كفرا وتجبرا وإجحافا، قتلت زوجتي وبنيت برجا كبير لأصل إلى السماء لكنه انهار سريعا فوق البانين، زعمت أنني أحيي الموتى، نعم عجزت وكانت نهايتي غرقا في بحر الظلمات، لم ينفعني إيماني قبل أن أمت بلحظات، جعلني الله عبرة للعالمين.

ما زلت أبحث من أنا؟

لعلي أنا بلال الحبشي هل أنا عبد لأمية، تبا لك يا أمية كم كنت مجحفا بحقي وأذقتني من طعم

العبودية كم عيرتني بلوني، قيدت حريتي، وضعتني على رمال الصحراء الملتهبة، وضعت

الصخرة على جسدي، كبلتني وجعلت أطفال

مكة ترجمني بحجارتها، لن أنسى ما فعلته بي يا أمية.

" لا نجوت إن نجى " كلا

انا الحصار الذي حاصر أبناء مكة الذين آمنوا مع الرسول، نعم حاصرتهم ثلاث سنوات حرمتهم

من الطعام والشراب جعلتهم يأكلون أوراق الأشجار أنا الحصار الذي سمعت صوت أجوافهم

وهي خالية، سمعت بكاء أطفالهم يبكون من الجوع، إنني شددت عليهم من دون أن أفرق بين كبير

وصغير، أشعرتهم باليأس والجوع والضعف، نعم قد قسوت عليهم كثيرا يبدو أنني أبو لهب، أنا أبو لهب الذي وقف في وجه النبي وحاربه وشارك في حصاره وكنت

أتباهى بالمال، أنا الذي كان يردد تبا لك يا محمد، حتى نزلت سورة بي، تقول: تبت يدا أبي

لهب وتب ..... كلا كلا وألف لا أنا لست أبا لهب إنني متأكد أنني لست هو.

تفكرت قليلا وتذكرت أن...

_فرعون الطاغي قد أماته الله غرقا وجعله عبرة للعالمين وفرج عن سيدنا موسى عليه السلام

ومن معه وكان نصرا مبينا.

_ وابن سيدنا نوح الابن العاصي، لطالما كان نوح يدعو لابنه ولكنه مات غرقا بسبب عصيانه

، وبعد حين فرج الله عن نوح وفلكه.

_تذكرت إخوة يوسف عليه السلام الذين ظلموا أخاهم النبي ولكنهم تابوا وعفا الله عنهم أجمعين.

_ وبلال ابن رباح رضي الله عنه الذي ذاق الويلات والظلم ونصره الله وجعله لواء بين

المؤمنين.

_والحصار الذي لم يرحم أحدا فسخر الله حشرة لتأكل وثيقة الحصار والمقاطعة.

_ أما أبو لهب رغم كفره وطغيانه، فقد فرح بولادة الرسول عليه الصلاة والسلام وأعتق

جارية يوم ولد النبي فحرم الله على جسده النار يوم الإثنين لأنه فرح بولادة النبي.

نعم رغم تنوع تلك النوائب والمحن وصعوبتها وتأخر النصر إلا أن الله ينصر المسلمين

ويعزهم.

ها قد أبلج الفجر.... وإلى الآن لم أعرف من أنا، أنني لم أعثر على المرآة لكي أعرف من أنا، وجدت بركة مياه وكانت قدماي تتسابقان إليها، كان قلبي يطرق بقوة فائقة، وعيناي متعطشتان

لرؤيتي، ونفسي متشوقة لكي تعرف من هي، دنوت منها أكثر، رأيتها كالسراب تبتعد، ولا زلت ابحث عن

وجهي، انفجر غضبي واصطكت أسناني

مع بعضها، تمحصت أكثر فوجدت جبلا أشم تحيطه مدينة عريقة فأدركت أنها دمشق وقاسيون..

لم أعرف من أنا ولكن وجدتهم يطلقون على برجوازي إقطاعي إرهابي متشدد متطرف مخرب مندس متآمر عميل خائن فاسق وأسماء لم ادركها من قبل

فعرفت أنني ذلك السوري الذي طالب أن يعيش حراً،

إنني أنا السوري؛ أعلم أننا سننتصر في يوم ما حتى وإن لم نكن أحياء

التوقيع: سوري حر

وما أدراك ما الأم....

بين ثنايا القدر وطيات الأيام كان كأس العلقم يدور على الجميع من دون استثناء أحد، فأصبح دور الامرأة التي أنا قطعة منها إنها أمي. لا أذكر التاريخ ولا أحبذ أن أتذكره.

أمي التي مهما توحدت الكلمات وتتالت الحروف وانبثقت المشاعر وكتبت الأقلام فكلها عاجزة عن وصف ظفر قد قص من أصبع أمي، والدتي أنني لا أدرك مدى حدود محبتي لك، أعرف أن القدر كان قاسياً عليكِ يا أمي لكننا مرغمون أمي التي أنجبت خمس شمعات فعاهدنا أنفسنا أن نكون سراجاً يضيء الظلام لأمي لكننا لم نستطع أن نقف بوجه

طائرات الحرب.... فبينما كنا ندعي الأمان في بيوتنا......تأتي طائرة وترمي غارتها الأولى بقرب بيتنا، فنزلنا إلى بيت أخي لعلنا نحتمي بشيء، كانت أمي تحمل طفل جيراننا، وما هي إلا دقائق قليلة أو أقل تأتي الطائرة وتقصف غارتها الثانية في البيت الذي نحتمي فيه.......كان صوت

الصاروخ يصعق الآذان وضغطه يوقف القلوب فجأة عج الغبار وتناثر الزجاج وإنهال الركام وعم الصراخ ليولد الألم، بضع ثوان وأرى أمي ملقاةً على الارض فكانت شظايا الصاروخ قد اخترقت

جسد أمي وهي مملوءة بالركام والزجاج، لم يستطع عقلي أن يفسر، ما حدث، فجأة رأيت نفسي في المشفى وأمي في غرفة العمليات تعرضت إلى عملية جراحية كبيرة فتلك الشظايا قطعت أحشائها وشراييها حتى أعصابها تأذت كان وضعها مزرياً وبعد ثلاث ساعات أو أكثر تخرج أمي وهي

مملوءة بتلك الأنابيب الجراحية ووحدات الدم التي نقلت إليها، شعرت بأن قلبي بدأ بالبكاء وتذكرت أمي عندما رأت أخي مصاباً كم كانت حزينة وتذكرت أختي التي في المعتقل وتذكرت كأس العلقم وكل شيء مؤلم...، كان وضعها ليس بجيد لذا نقلت إلى العناية المشددة.

أمي التي كانت تستطيع الخروج وإكمال مسيرتها في التدريس لكنها أبت الخروج والخنوع من أجل أولادها ومن أجل مدرستها وبيتها ووطنها ومن أجل الجميع كنت ادعو ربي ألا أرى بأساً بأمي، مرت خمسة أيام وتخرجت أمي من المشفى لكنها لاتزال تعاني من المرض وتتألم، أيام قليلة

وتتعرض امي لعملية جراحية اخرى لقد شعرت أن المرض أتخذ من جسد أمي وطناً له سحقا له وبعد معركتها الثانية مع الموت تنتصر أمي، أمي إلى الآن تعاني من مشكلة عصبية في جسمها قالت لي امي: أتدرى يا ولدي أنا لا أخاف من الموت ولكني خفت أن أموت ولا أرى ابنتي المعتقلة التي لم أرها منذ سنين قد خلت، ما أعظم قلبك يا امي أعلم يا والدتي لو أننا نستطيع أن نتبادل الأجساد لما وفرتُ لحظة من تعبك يا أمي وبعد شهر... وفي غمضة عين وطرقة قلب يسطع

بدر منير في ظلام دامس، وفجأة ومن غير ميعاد يقرع الباب لنجيب الطارق فإذ هي اختي المعتقلة....... نعم أختي.... وقفت صامتاً مصدوماً للحظات شعرت بأنني أحلم ولكنها كانت الحقيقة ضممتها وشممتها وكانت الدموع تتساقط حتى روت القلوب ما كنت اتوقع من نفسي أنني سأرى

أختي مرة أخرى لقد تحقق حلم أمي وعادت اختي ورسمت على وجهنا بسمة الفرحة والامل من جديد

شيخون والغوطة تئنان

شيخون والغوطة تئنان ترتعش ذاكرتي من جديد لتتذكر ما حل بنا في عام ٢٠١٣ حيث أن الهواء شارك في موتنا؛ كان لغوطة دمشق نصيب كبير من هواء الموت، أرجع بذاكرتي إلى الماضي فأكاد أصعق من هول ذلك المشهد حدثت نفسي بأنه لن يتكرر ذلك من جديد إلى أن جاء خبر خان شيخون فتذكرت أطفالنا الذين اختنقوا بأنفاسهم نعم أطفالنا ماتوا من غير أن يتلوثوا بالدماء ناموا بهناء، ولم يستيقظوا أحدث نفسي ما ذنبهم) وإذا المؤدة سئلت بأي ذنب قتلت (فليعلم الجميع قبل

أن تذكروا خان شيخون فلتتوضؤوا جميعا لأنها طاهرة بريئة وان كنتم مهطعين رؤوسكم

فارفعوها شامخين إلى العلياء لا أجد مفردات بمعاجم اللغات لتصف أجزاء بسيطة من معاناة

ألمنا المديدة. خان شيخون لم يكن حالك أفضل من حالنا، إلى الآن لم يجف تراب قبور أطفالنا الذين استنشقوا هواء الموت ولم يزفروه، لم يندمل جرح الغوطة بعد... إلا أنه شُقَ من

جديد في خان شيخون كلانا تجرعنا من علقم الكيماوي اعلموا أنه لن يقف معكم أحد سوى الله هو خير ثوابا وخير أملا..

أنتم يامن تدعونَ الإنسانية خسئتم وخاب سعيكم لن ولا نقبل أن

نضع رؤوسكم تحت نعالنا لكي لا ندنس نعلنا بنواصيكم الكاذبة الخاطئة تبت أيديكم وشلت سواعدكم. شيخون تموت خنقاً والغوطة تموت قصفاً، في الغوطة وقفت عند قصة حدثت

أمامي.. دخل طفل وهو سالم من القصف إلى المشفى وحاله مليئة بالغبار .... كان يوزع نظراته يميناً ويساراً ويضرب على فخذيه قائلا "أنا الحق علي أنا الحق علي" وقت مضى الطفل ودموعه تنسكب على وجهه الذي بيّضَهُ غبار الركام يأتي الأب هرعا مهرولاً... رأيت عينيه اللتان تتلألآن من الدمع المسجون في مقلتيه. شاهدت شفتاه كانتا ترتجفان خوفاً على طفليه فوجهه غدا أصفر... أما عن أصوات خطواته فكانت تتكلم، يركض الولد إلى حضن أبيه ويصرخ أبي كان

يحضن أباه بشدة ويعلو صوته بالبكاء كفكف الأب دموع ابنه؛ أما عن دموع الأب فلا زالت مسجونة بعينيه يدخل الأب غرفة العمليات ليرى طفلته التي لم يناهز عمرها ثمان سنوات وهي مطروحة على السرير والكفن يزين جسدها.. يقترب الأب أكثر فأكثر يقبل نصف وجه ابنته ويحاول أبعاد الكفن عن نصف وجهها الآخر، أبعدناه لأن نصف وجهها قد سلبتهُ الشظايا التي اثخنت جسد الطفلة.... لم تكن تلك اللحظات إلا ساعات وهي تمضي يتقهقر الوالد ساكناً فالآلام التي

انصبت على قلبه قد حررت دموعه من سجن مقلتيه وبدأ يجهش بالبكاء وهو يشهق ويئن.... مسح دموعه بساعديه وقال الحمد لله وخرج إلى طفله الناجي حضنه ثم دخل إلى العمليات ثانية ويضع

يده على ناصيته كأنه لم يصدق ما يرى إن معاناة الشعب السوري لا تنقضي، بضربة من أمريكا وأعوانها لن تنقضي معاناتنا إلا بقتل قاتلنا.

مذكرات صفراء

أتذكرُ ذلك اليوم تماماً، كان بعد ذكرى مجزرة الكيماوي بيوم واحد ٢٠١٤/٨/٧ يوم صيفيٌ تسطعُ شمسُه وبأشعتها الصفراء تضيء منزلَ (أمِّ أسعد).

تماماً أمُّ أسعد توقد النار ببقايا ما لديها من ثياب مهترئة لتطهوَ حساءَ الشعير ذي اللونِ الأصفر كي تَسُدَ به رمق عائلتها الجوعى، تبتسمُ تلك المرأةُ خلال عملها فترى في ابتسامتها تجاعيد الحرب في أطراف عيونها الواسعتين، ووجهُها النحيلُ المنهك يحكي قصةَ الحصار هناك في الغوطة.

أرسلَت الأم ابنتها (لينا) لتشتريَ قليلاً من الملح من البقالة في الحي المجاور، كانت أصوات القصف يومها لا تتوقف وبعضها قد بدا وكأنه صادرٌ عن قذيفةٍ سقطت قريبة من المنزل، ولكنّ الأمر المُعتاد أن تتواجد هذه الأصوات فمدافعُ النظامِ وأسلحتهُ لا تتوقفُ عن قصف المدنيين هناك.

طالت فترةُ غيابِ (لينا) فبدأت الأم تشعرُ بالقلق وهي تنتظر ابنتها التي لم تعد بعد، ثمّ مرَّت ساعة ونصف ولمّا تعد (لينا) بعد، قد تأخرت لينا كثيراً وبدأ قلبُّ أُمِّها يحترق خائفةً أن يكون قد حصل لابنتها شيء، بدأت تتعوذ من الشيطان وتدعو الله أن يحمي ابنتها لها.

ثمَّ هدأ القصفُ قليلاً فأرسلت (أسعد) ليبحث عن أخته وصولاً إلى الحي المجاور، فذهب يبحثُ حتى وصل إلى البقالة ليجدَ المكان مُهدماً من قذيفة دمرت كلّ جمادٍ هناك، فركض إلى مشفى الحيِّ ودخل ناظراً يمنةً ويسرةً باكياً باحثاً عن أُخته صارخاً باسمها بين جموع المصابين والناس المتجمهرة هناك، وبينما هو يصرخ رأى والدهُ بين الجموع أتى ليبحثَ أيضاً عن ابنته؛ بعينيه الدامعتين ينظرُ بين المصابين والشهداء وينادي باسمها وشفتاه مرتجفتين من خوفه عليها.

راحَ الأب يسألُ عن ابنته الممرضين والمسؤولين في المشفى واصفاً إياها لهم: "فتاةٌ بوجهٍ أبيضٍ وشعرٍ أسود وعيونٍ سوداء ترتدي ثوباً بلونٍ...." ولا يتلقى أيَّ إجاباتٍ تُريحُ خاطره، حتى وصلَ إلى جانبِ غرفِ العمليات ليجدَ لينا ذات الثمان سنواتٍ مطروحةً على السرير مُلتفةً بكفنٍ أبيضٍ غطَّى جسدها وأخفى عشرات الشظايا التي دخلت جسمها بما فيها جانبٌ من وجهِ الطفلة البريء، بدأ الأب يجهشُ بالبكاء ضامّاً لينا إلى صدرهِ ويدعو اللهَ أن يجعلها شفيعاً لأهلها ويُصبرَّهُم على فراقها.

-هكذا هي الغوطة، عاشت أسوأ حصارٍ وقاست أقسى المجازر وفقدت الكثير من فلذاتِ كبدِها وذرفت الكثيرَ من الدموع في طريقها لتنالَ حريتها.

أمي"

لا أريد أن تفرغ سطوري من تلك الكلمة، لا أريد أن أكمل حياتي من دون تلك البسمة لا اريد ان يطرق قلبي من دون تلك الأذينة؛ امي التي تعجز عن وصفها حروف اللغات امي التي فيها اتنفس، أمي التي فيها أرى واسمع وأتكلم أمي التي تشرق مع الشمس وتهل مع القمر هي نجمة في السماء؛

هي السحابات التي تكتظ بالخير لكل شيء أمي أشعة دافئة في البرد ونسمة عليلة في الحر؛ أمي هي بذور الخير للثرى أمي التي استصبح بنور وجهها وبابتسامتها اسأل الله أن يجعل يومي قبل يومها؛

كم صبرت لتراني كم تألمت لتنجبني كم سهرت على راحتي كم تعبت لأجلي كم حرمت نفسها لتعطيني، كم هرمت لأكبر أمي أنتِ ملاذي لو أنني استطيع أن أرد جزءاً من تلك الأشياء العظيمة؛

وهبتِ نفسك لتربيتي أمي لا يكفي أن أقبل يديك اسمحي لي أن اقبل قدميك اسمحي لي أن أضع نعليك على رأسي؛ وكيف لي ألا أفعل هذا وأنا قطعة منك؛ أمي لا يتسع لكِ قلبي، في قلبي أنتِ تسكنين وفي نفسي، من شدة عظمة أمي؛

مشاعري وحروفي هي عاجزة عن وصف ظفر قد قص من إصبع أمي وكيف لا.... وسيد الخلق قال أمك ثم أمك ثم أمك

؛ اعلموا يا اخواتي أنكم لا تشعرون بقيمة الشيء إلا عندما تفقدوه فلا تعرضوا أنفسكم لأمور أنتم تتجالوها؛

كن باراً بوالديك، أمي لا ينتهي الحديث عنك ولكن الكلمات تنتهي ولا تستطيع أن تتمَ وصف أمي أسأل

الرضا من الله ثم منكِ.

أوركسترا السوريين ٢٠١٨

إن سيمفونية السنوات تتوالى مثل العزف على أوتار القيثارة، مثل انتقال الأصابع على البيانو، مثل حركة الريشة بين أوتار العود، كتصفيق الجمهور أيضا.

فالأنغام لا تبقى مقيدة في آلاتها إنما تتحرر لأذن السامع، ولأن الأعوام تتوالى دون أن تتلاشى فحياة الجميع بازدياد متقدم سواء للأمام أو العكس، يختلف العزف على آلات قطعتها شظايا الحرب؛ فإن العود بدون أوتار وعازف البيانو بدون أصابع، والسامع قد سلبت منه نعمة السمع، والأنغام بكماء، والمسرح بدون ستار؛ وأما الألحان حتى بيتهوفن لم يعرف أن يصوغها فصاغها السوريون بثورتهم... فهل يمكن العزف على تلك الآلات؟ نعم يمكن لأن دوي الآلام أصبح جزءاً من سمعنا وبصرنا.

ها هي سنة ٢٠١٨ تدخل مع موسيقا تعزف وتتكرر على آلات الحرب الضروس، على المقطوعة التي تسمعونها منذ سبعة أعوام إلى الآن

فهي من تأليف السوريين فكتبت بدمائهم ولحنت بأصواتهم وتعرض بأرضهم وتسجل بذاكرتهم.

في هذه السنة ستكبر أعمالنا وتزداد هموما، سيطول غيابنا وربما تتزايد هجرتنا وتتناقص أفراد عوائلنا أو تزداد، ستأتي ٢٠١٨ واحدة على الجميع مختلفة على الأفراد فحياة السوريين لا تشبه حياة أحد قط؛

فتلك الألحان تتوزع في الشام الجريحة وحمص المنكوبة وحلب المدمرة وحماة المنهكة والرقة المسلوبة وتدمر المحروقة وإدلب المحتلة ودرعا المكلومة والجولان المباعة ودير الزور المدماة ودمشق المغتصبة والغوطة المحاصرة، وما خفي أعظم وما كتب أرحم.

سبع سنوات ويحاول الجزار كتم حناجرنا بالرصاص والكيماوي بكل شيء يستطيع أن يكم به الأفواه

سبع سنين ولم ينصرنا أحد

سبع سنين ولا غالب إلا الله

كلنا نتساءل ألم يحن وقت سقوطه؟!، ذلك الوحش المتوغل الذي ينهش شباب وطني،

المجرم الذي استنكر أن القدس عاصمة إسرائيل وهو الذي باع الجولان لإسرائيل، المجرم الذي جعل سوريا عاصمة روسيا العسكرية، باع وطني وشرد أبناءه ... لأجل كرسي رديء، كم ازدادت الوعود في هذه السنوات

جنيف واستانا وسوتشي والرياض؛ كم تعددت الأسماء والأجزاء، والسوريون ينتظرون ويموتون، وتزداد الأعوام مع ازدياد الأسماء والأجزاء. ...

كم كان عبد الله ابن أبي ابن سلول له أثر على جل الذين ساهموا بعرقلة الحلول السورية

لو أن فيكم أثر ابن الخطاب لما وصلنا إلى هنا.

كالأنغام يهبط السوريون في المقابر على الثرى

كانقطاع الأوتار تقطع أرواحهم، لم يختلف عليهم شيء سوى تجدد الأرقام،

سنة الثامن عشر بعد الألفين...ستزيد من عمر الثورة وعمر الشهيد، والمعتقل المفقود، والمشتاق المحروم، والظالم والمظلوم، ستذكر وتزيد، ستكبر ستجدد، ستعطي وتحرم، ستفني وتبني، ستختلف على الجميع.

إن أنغام السنوات الماضية لاتزال تتردد على مسامعنا لتذكرنا بماضينا الذي اعتقدنا أنه قاسٍ أمام واقعنا الحالي

فللموسيقى أنواع عديدة فحتى الآلام تتنوع وتتجدد وتتمدد....

تتراكم الأعوام وأنا بعيد عن بيتي المنهار المقصوف.... منزلي الذي كلما مررت بجانبه أستنشق عبير الذكريات...داري التي استندت أقسامها السليمة على أقسامها المتراكمة... داري التي أقول في كل سنة سأعيد إعمارها بأذن الله، وسأبقى أردد ذلك ما دمت حيا.

ليس فقط أنا إنما الجميع بعيد عن بيته ووطنه وأمه.

يا أيها الأمان يا أيها النصر

لم ذهبتما وضللتما الطريق؟

ألستم من حقنا!

عودا إلى ديارنا

لعلنا نعيش آمنين مطمئنين.

سبع سنوات وازدادت سنة ولم ينته العرض الموسيقي بعد؛

لذا بات إصغاء المستمعين ضعيفا لأنه أصبح أمرا اعتياديا فهم لا يصغون جيدا إلا حين تتعالى أصوات المجازر وما يعطوننا آذانهم إلا ليتقاعسوا ويديروا وجوههم عنا شهورا أو سنوات

سبع سنوات عجاف سبع سنابل يابسات سبع بقرات نحال، سيتحقق الحلم وتبدأ السنون اليافعات وتنبت السنابل الخضراء.... سيطرق الأمل أبوابنا حتى وإن لم نكن أحياء لنفتح الأبواب .... ستجيب جدراننا

ولأن الشمس تشرق من الشرق منذ أكثر من ٢٠١٨ سنة ولا يمكن لأحد تغيير هذه الحقيقة العلمية فإن شعب الشام هو مؤمن أن سيمفونية الثورة ستنتصر مهما طال عرضها وقل مستمعوها، ففي يوم ما سيرفع ستار الحرب، وتشرق شمس الأمان على وجوه أنهكها الانتظار.

غرفة العمليات

هنا في غرفة العمليات يتبعثر الجرحى في الأرض وعلى الأسرة ويعلو الضجيج الذي ملأه الألم المكبد بالظلم ليبدأ العزف بأسلوب الصراخ والأنين على أوتار المصابين المحاصرين، الذين يروّون الأرض بنزيفهم السائح البريء الذي نقشه القدر على لوح الحياة ليفسر ما يحدث، في داخل هذه الغرفة، يكون المصير أما عن فقدان حياة أو فقدان طرف أوعين أو رئة أو شيء أو.... أو....

مواقف يصعب ويستحيل اجتيازها بسهولة حيث يعجز القلب واللسان واللغات والحروف والدموع والإعلام والعالم أن يصف جزء من الإجرام والمعاناة؛ في كل هذه الأجواء التي تختلط مع بعضها، مع سماع تلك الأصوات أصوات الجوع والألم، مع رؤية العيون التي لا تستطع أن تفسر ما تشاهد! رؤية طفل ملقى على فراش الأرض وأحشاؤه تخرج من بطنه ويستنجد ببراءة ياااااالله، ومشاهدة رجل كهل تكون قدمه عالقة على بضع أشلاء ولا يستطيع الصراخ من كهولته، رؤية امرأة يخرج الدماغ من رأسها' ومشاهدة أم تنوح على طفلها، وتتنوع الآلام بجروح مختلفة، لتعرض الواقع المحتوم من دون مفر. ويأتي الحل بعد كل هذه الاحاسيس ولتستطيع أن تساعد جزءاً من أولئك المصابين يجب عليك قطعياً أن توفر

إحساسك وإنسانيتك لوقت لاحق! لتستطيع العمل بضمير صافي........... وبعد انتهائك من العمل

تستطيع أن تظهر أحاسيسك التي ضمرتها من أجل الأبرياء؟؟؟؟؟؟

وتبكي بقد ما تشاء.

صورٌ التقطتها بقلمي

أزيز طائرة، صفير صاروخ، أبواب تهتز، ضغط يزعج طبلة أذني، رنين الشظايا يرتطم بكل شيء، قذائف كثيفة، صوت سيارات الاسعاف، اسلحة لا يمكن وصفها...

تُقصَف الغوطة الشرقية المحاصرة منذ أكثر من خمس سنوات، ولكن

في مساء يوم الأحد ١٨ شباط ٢٠١٨ بدأتْ حملة القصفِ الشّرسة على الغوطة، حملةُ قصفٍ لم يشهدْها أيُّ أحدٍ من قبل.

والجميع ينتظرُ أن يهدأَ القصفُ ليبدأ بحياتهِ المختلفة عن الآخرين، هذا إنْ بقيَ على قيدِ الحياة.

فجأةً اشتدَ القصف علينا جميعاً، فاضطررنا إلى النزول للملاجئ الغير صالحة للسكن.

"الملجأ:

كانت أرضهُ من التراب وسقفهُ من الإسمنت؛ الجدران تبرز منها قطع حديد، نوافذه عارية من كل شيء، رائحة الرُطوبة تعم المكان.

ساعات طويلة والجميع ينتظر ليهدأ القصف الذي يبدو بلا نهاية، تتراكم الساعات لتصبح أياماً خالية من الأمان مليئة بالخوف .... أياماً مكتظة بالألم متعريةً من السكون.... حتى الأيام تراكمت فأصبحت أسابيع.

الآن اسمع صوت صاروخ حاقد يحرق الهواء بسرعة

فجأة ضغطٌ قوي.... اهتزاز يعم المكان.... صوت انفجار يصعق الجميع. . الغبار يحجب الرؤية، الكل في حالة ذعر.

الصاروخ استهدف الملجأ المحاذي لملجأنا، صوت سيارات الإسعاف يسيطر على مسامعنا.

لم استطع أن اصبر أكثر من ذلك، أريد أن أساهم بأي شيء كان، حتى ولو بنظراتي، ذهبت مع أبي عمار سائق الإسعاف إلى المشفى.

"المشفى"

المشفى خاليةٌ من الاستقرار، البكاءُ والدّماء يعمّانِ المكان، أطفالٌ بلا أيدي، بلا أرجل، نساءٌ مغطّاةٌ بستائر منازلها، أشلاءٌ على الجانب، شهداءٌ على الشّق الآخر، جرحى لا تُعدّ ولا تحصى؛

أطباء تعمل، ممرضون يركضون، أمهاتٌ تصرخ، أطفال يبكون، رجال تموت، دماءٌ على الأرض.

سائق الإسعاف ذهبَ ولم يعد! المُستلزمات الطبيّة بدأتْ تنتهي، والجرحى لم تتوقف.

الطائرة توجّه صواريخها الروسية نحو المشفى، انفجارٌ يصعقُ الجميع. إصابةُ الكادر الطبيّ، خروج المشفى عن الخدمة،

صاروخٌ آخر على نفس المشفى للتأكد أنّه لم يخرجْ أحدٌ حيّ.

الجميع يعمل، والكلّ يقدم، الطيران لا يهدأ والقذائف تسانده. أناس تحتٌ ركام الأقبية تلفظ أنفاسَها الأخيرة.

يوم آخر، ويأتي أخي مُصابًا ممتلئًا بالدّماء، أنظرُ إليه وأشهقُ من دون زفير.

ساعاتٌ قلية وتأتي عمتي مُصابة، أيامٌ أخرى ويأتي طفلٌ رضيعٌ قد ماتَ لأنّه لم يجِدْ حليبًا ليشربه.

بقيَ السيناريو هكذا لأيام؛ لم يعد هناك شيء فوق الأرض، كلّ الأزّقة خالية إلاّ من الموت، كان ضوءُ الصّواريخ الحمراء يصعقُ النّاظرين

خرجتُ إلى الطريق، فوجدتُ مدينةً مُغايرة، لعلّه "تسونامي" مر من هنا ولكنّ تسونامي كانْ ظاهرةً طبيعة.

أتألم جدًا عندما أعلمُ لماذا نحنُ قصفنا، قصَفنا ودُمرنا لأنّنا كسرنا حاجزَ الخنوع والذل، لأنّنا نريد الحرية التي هي من حقنا، ولا زلنا على العهدِ باقون سنهتفُ بالحري حتى ولو اقتلعتُم حناجرنا، وسيرحلُ الأسد وتبقى سوريا حرةً أبيّة.

اعذريني غوطتي، فلمْ أستطِع أن أصيغَ كلّ آلامك بقلمي، فأنا عاجزٌ عن التعبير حتى لنفسي،

إنّها ليستْ روايةً لفكتور هوجو، إنّها مأساةٌ عاشتها الغوطة الشرقية منذ عام ٢٠١١   إلى ٣١ مارس ٢٠١٨ إلى أن هُجرّنا من الغوطة.

لله درّكِ غوطتي!

خانتني أمبولات الإنعاش يا أخي

5/3/2018

عن زهرة قطفت قبل أوانها أتحدث، عن شمس غربت قبل سطوعها، عن صوت تلاشى قبل رنينه، عن أطفال لم يحفظوا صورة أبيهم بعد، عن أطفال لم يعتادوا على لفظ "بابا"، عن ذلك الشهيد أتحدث؛ بأي لغة أرثيك يا أخي

كنت دائما أنظر في وجوه الجرحى وأخاف أن أعثر على أحد من أفراد عائلتي بينهم، كنت أتوقع الأسوأ لأن الواقع المرير فرض على ذلك، فعندما جاء دورك يا أخي لم أتوقع أن تتماسك اعصابي لكي اعمل بك إلا أن الله صبرني على ذلك،

في ليلة حالكة عتمة إلا من أضواء القصف، كنت أعمل ممرضا وكنت في غرفة العمليات والغرفة مكتظة بالمصابين والشهداء على كافة الأسرة وعلى الأرض وعلى كل جانب، لم يكن أمراً غريبا بالنسبة لي لأننا في كل يوم نتعرض لمجزرة، دقائق معدودة وأرى زميلي وجهه محمرا ويبكي فسألت بسرعة ما به فقالوا لي بأنه كان ينعش أخاه ولم يعرف بأن أخاه استشهد.... لوهلة توقف عقلي ومن كثرة الجرحى لم يكن لدي وقت لأواسيه.

ثوان أخرى ويسقط صاروخ آخر ومزيد من الجرحى، فجأة سقطت علبة الجراحة من يدي لم أعرف لماذا توترت قليلا.

لحظات ونيف ويخبرني زميلي

"محمود.... تعال شوف أخوك هيثم " فجأة انقبض قلبي وتلعثم لساني وذهبت مسرعا إلى الإسعاف شعرت بأن الطريق طويل ولا يبعد عني سوى أمتار باتت أحاسيسي تسبق خطواتي وأنا أركض ...وأحدق النظر في الجميع، أرض الإسعاف ممتلئة أكثر من ٢٠٠ جريح ولا زلت أبحث وأنا فاقد الوعي فذهبت إلى القسم الآخر....

رأيت أخي وعشرات الجرحى والشهداء على الأرض، دماء على الجميع، أضواء خافتة، صرخات لا يسمعها إلا الله، أنين وعويل ونحيب، ألم .... خوف... قلق ...، كان كل شيء لا يتعلق بالطمأنينة موجود.

رأيت أخي شهيدا وكان في يدي أمبولات الإنعاش التي لطالما أنعشت بها أناسا أبرياء، سقطت أرضا أمامه بدأت بتلمس وجهه رأيت دما قد خرج من اذنيه وفمه، مزقت ثيابه ورأيت شظية قد دخلت إلى قلبه الطاهر، أعطيته جرعات "أدرنالين " مسدت القلب وضعت السماعة على صدره الرقيق لم أسمع شيئا .... هنا لم أعد أتمالك أنفاسي بات صوت الصرخات بداخلي ينفجر وبدأت دموعي تنهمر واعصابي تتلف، سامحني يا أخي خانتني أمبولات الإنعاش.

أعلم أن ذلك مكتوب له وأنه قدره.

لحظات وأتت أمي مهرولة إلى المشفى لم يخبرها أحد قط إنما قلبها الذي أخبرها، لم استطع أن انظر إلى وجهها فصرخاتها كوت قلبي وكتمت على أنفاسي

ظلت الصرخات مكتومة داخل كياننا المهترئ من الآلام،

باتت الدموع سيدة المكان، أصبحت الشهقات نديمة الأنفاس، صار الحزن قائدا ونحن جنوده، وهكذا في كل يوم كانت تكبر المأساة فأصبحنا نتقاسمها فيما بيننا.

خانتي كل أمبولات الإنعاش يا أخي، فصدمات الكهرباء لم تجد نفعا ولا أمبولات الادرنالين التي تجعل القلب يعمل، فقدرك وإصابتك الواسعة جعلتك ترتقي لمرتبة الشهيد

اليوم تبكيك أمك وزوجتك وعيوننا

اليوم تبكيك يد طفلك الذي لا تعرفه إلا في عمر ٢٥ يوم

اليوم تبكيك الأيام والتاريخ وكل شيء من أثرك يبكيك.

أكثر ما يصعقني ويؤلمني بأني بعد أن نفيت من وطني لم أعد استطيع أن أزور لحدك. نعم هجرت من غوطة دمشق يا أخي.

تقول لي امي أنها تستحضر قصة النبي محمد صلى الله عليه وسلم عندما فقد ابنه إبراهيم، قال صلى الله عليه وسلم: ((إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا

بفراقك يا إبراهيم لمحزنون)) وتقول أمي ونحن على فراقك لمحزنون يا ولدي، قالت أمي إنها تتصبر بقصة الرسول الكريم فسيد الخلق اصابه ما أصابنا فصبر.

آه يا أمي..... كم أنا مشتاق لك ولأخي ولبلدي وهواء وطني.

تؤلمني الذاكرة إيلاما مبهما، بدأت أتوجس من الماضي والذكريات، عشقت النسيان وأدركت نعمته ولكني لا أحبذه لأنني لا أريد أن أنسى أيامي مع أخي وسندي وقرة عيني، لا أريد أن أنسى من علمني قيادة الدراجة والسيارة ومن علمني كيف أدافع عن حقي، شكرا لك يا أخي رحلت وتركت ملاحظتك محفورة في تلافيف ذهني.

نعم ثورة يتيمة كأولاد أخي، اليوم يتعلم الأولاد بأن الله غالب على امره، يتعلمون مبادئ الحب والسلام، يتعلمون مبادئ العدالة والمساواة.

وهم أيضا تعلموا من أعدائنا بأن القتل بالكيماوي لا يجوز ولكن القتل بالطيران والبراميل والصواريخ يجوز

ولم ولن وكل أدوات النفي لم تنسهم من قتل أباهم.

وختاما "يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين "

ذات يومٍ كان هناك بيت

بينما كنا نسير دخلنا تلك المنطقة، وهب هوائها البارد الحزين، كان خالياً من الأمان يحمل الرصاص كانت سماؤها كئيبة حزينة كان الطريق مكبداً بتلك الحفر التي اخترقتها الشظايا وعلى جانبي الطريق كان هناك جبالا من التراب نمشي إلى الأمام قليلاً وكان يرافقني صديقي وكنت أتأمل بعيني ما أرى ،كان صديقي يشير لي ويقول لي أنظر هنا كان بيت جدي فأنظر واتمحص وأشاهد ركاماً وخراباً وهدما وترابا و أنظر إلى صديقي ويقول أنه هنا بيت ذويه وذلك الشباك يطل على هناك و أراه يتكلم بشفافية محكمة ثم نسير إلى الأمام، ويشير لي أن هناك كان منزل عمتي أنظر إلى هناك فأرى اكوماً من الركام والرمال و أرى بيوتاً

محروقة نمشي فيقول لي لنذهب لأريك بيتي ذهبنا الى بيته وصعدنا الدرج والذي كانت أدراجه نصفها محطمة والنصف الثاني مليئاً بالركام دخلنا بيته الذي كان عارياً من كل شيء

حتى من بعض الجدران كان عارياً من كل شيء إلا من الكرامة؛ كان مليئاً بالكرامة رغم خلوه من كل شيء كان هناك بقايا حياة، يدلني صديقي ويشير لي هنا كنت أنام، هنا كانت غرفتي هنا كانت غرفة امي كان يتكلم ويخرج الكلام من قلبه كانت ابتساماته ضحلة كان

يتحدث معي وأنا أنظر إلى عينيه وأرى تلك الذكريات التي باتت شبه عادية عنده لما مر على قلبه

من الأسى تسكعنا قليلاً واتجهنا نحو المقبرة وبدأ يشير لي قائلا هنا قبر ابن خالي وهذا قبر صديقي،

وذاك قبر عمي وانظر إلى مقلتيه الجميلتين الحزنتين حتى شواهد القبور كانت محطمة... فجأة لم

اعد أرى شيئاً سوى صديقي وانظر إلى قوته ومدى صبره أتى إلى بلدته المدمرة كان يروي لي

عن منطقته المدمرة لكنني لم أعش ألم تلك الكلمات إلا عندما ذهبت وشاهدت كل

شيء ورأيت أنه لا يوجد شيء إلا بقايا حياة حتى بقايا الحياة كانت تتلاشى من هناك لم يكن هناك شيء لم يكن هناك شيء في جوبر سوى) الكرامة نعم

الكرامة التي بقية وحيدة هناك ....

الباطل ينتصر والحق يهزم

"زهق الحق وظهر الباطل"

كنت دائما أنتظر وأدعو أن أبقى حيا لكي أرى النصر المبين، بقيت حيا ولكننا لم ننتصر، فجأة انقضت روسيا والأسد علينا وسلبا منا نصرنا وأرضنا.

بعد سبع سنوات من الحصار والصمود من التضحية والهزيمة، من الإصرار الثبات، ها هي روسيا والأسد ينتصران على أهل الغوطة الشرقية، نعم هنا الغوطة، بعد سبع سنين من الحصار والقصف والجوع والصمود، انتصر الباطل على الحق لا أعرف إن كان انتصارا أم لا، ولكنه جرح واسع لا يندمل.

لطالما قالوا لنا الغوطة ليست حلب ثانية!!

بعد صبر سبع سنوات من القصف والحرق والحصار، ها هو نظام الأسد يسيطر على مدن وبلدات "الغوطة الشرقية"

وضعونا أمام ثلاث خيارات؛

إما أن نباد وقد أبيد أكبر قسم منا، وإما أن نهجر ونفر بديننا وثورتنا، وإما أن نصالح الذي قتلنا وشردنا وشرذمنا.

تذكرنا أهل مكة الذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم قسرا، لذا هاجرنا اقتداء بهم.

تذكرنا قوله تعالى "ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما"

(١٠٠، سورة النساء)

كم عظم الله أجر المهاجرين من بيوتهم، فنسأل الله أن نكون منهم. لم يكن قرار الخروج سهلا، فالتخلي عن الأرض ليس بالأمر الهين، روسيا والأسد اتبعوا سياسة الأرض المحروقة.

الكثير هتف لنا اصبروا وصابروا... ولكننا ثبتا سبع سنوات. الكلام أسهل بكثير من صواريخ لا تهدأ على مدار الساعة، الكلام أسهل من براميل تهطل على الأبرياء، الكلام أسهل من تحول المصاب إلى شهيد لعدم وجود مشافي سليمة، لا تلوموا أهل الغوطة فقد قدموا كل ما عندهم، لوموا من خذلهم ولوموا تكالب الأمم عليهم.

ومن أصعب اللحظات العصيبة

في الغوطة كانت عندما ركبت الحافلة وأنا مصدوم، جلست وسندت رأسي على نافذة الحافلة، باتت نظراتي الثاقبة من الحافلة أغرب بكثير مما كانت عليه، رأيت الجنود الروس ورأيت سلطتهم على جنود الأسد، فعندها أيقنت احتلالهم لبلادي المكلومة.

شعرت بأن كل شيء كان يودعني، تذكرت بيتي ودمعة أمي تذكرت والدي وأخي تذكرت الكيماوي، استجمعت كل أشجاني، مقلتاي طافت في الدموع، تذكرت أغنية فيروز "راجعين يا هوا " فكرت مليا وقلت قد يكون الانسحاب أفضل من الاستسلام.

هجرنا وبقي نصفنا هناك، هناك في دوما حيث تفوح رائحة الموت، مع الهواء، مع الشمس، مع الليل ...

إنه الكيماوي يطرق باب أرواحنا ليسلبها منا، إبادة علنية من دون قيود والكل في سبات سرمدي.

لم أتوقع أن النهاية هكذا يا دمشق ... بعد غياب دام لسبع سنوات على دمشق مررت بها كالضيف، رأيتها حزينة كئيبة، كان عبق الياسمين يفوح منها كم كنت أتمنى أن أزورها منتصرا، لا أن أمر بها مهجرا محزونا.

كأسراب الطيور هاجرنا، كهطول الأمطار بكينا، كنار الدنيا تلوعنا، كالجبال الراسيات صمدنا،

خرجنا بأرواحنا وثورتنا تركنا خلفنا أهلنا وبيوتنا، أرضنا وقلبنا، شهداءنا وأحلامنا. ...غادرنا وتركنا وتركنا......

هنااالك في دمشق تقطن ذاكرتي وعيوني وفي قاسيون تطوف روحي وفي الغوطة أستنشق هوائي، لم آخذ معي شيئا سوى دموعي وآلامي.

اليوم أدركت أن الصوت والصورة والكلمة لا يمكنها التعبير عن كل شيء، فهناك أشياء أعمق من أن تستطيع التعبير عنها، فعندما أسأل كيف كنت تعيش في الغوطة؟ أتلعثم ولا أعرف من أين أبدأ، لا استطيع أن أصف بكلماتي كيف كنت أحيا في هذه السنوات العجاف، اليوم هجرت قسرا من مسقط رأسي، فلقد تركت أبي وأمي، وداعا يا دموع أمي، وداعا يا صدر أمي، وداعا أبي...

وداعا يا ركام الوطن ويا جدران البلاد

وداعا أيتها المقبرة الممتلئة بالشهداء

وداعا يا قلب أمي ويا عيني أبي

وداعا على أمل بعده لقاء من دون فراق

وداعا بل إلى اللقاء.

في الغربة ابحث عن الله

مذكرات مغترب في رمضانه الأول

مغترب، نازح، مهاجر، لاجئ، كل هذه الكلمات تصب في محطة واحدة، تعددت الأسماء والغربة واحدة.

تصدح موسيقا الهجرة التي باتت تعزف على أوتار أحلامي السحيقة، فاليوم أرتدي ثوب اللجوء وأبدأ مسيرتي في الغربة، وها هي عاصفة للذكريات تهب وترتطم بثوب الغربة تاركةً وراءها أحلاما متطايرة مكلومة،

بعد غياب دام لسنوات في انعزالي عن الناس في منطقة محاصرة، اليوم صحوت في الغربة، نعم صحوت على صوت طائرة تحلق فوق هامتي، توجست منها وارتعشت من دون قصدا! تنحيت جانبا وتذكرت أن هذه الطائرات ليست لقصفنا إنما لخدمة بعضنا، مرات عديدة ويتكرر المشهد ولكنني لم أتأقلم بعد، فصوت الطائرات الحربية تشبث في تلافيف ذهني وتثبت في جذري فردة الفعل لم تعد إرادية كما ينبغي.

اليوم رفعت ستار الوطنية عني وأشرقت شمس الغربة على جسدي النحيل المنهك من الظلم والحرب.

فهنا حيث لا شيء يشبه سوريا، فباتت الحياة كغير الحياة، كل شيء تغير حتى لغة التواصل أيضا فإني أشاهد الأحرف التركية على اللافتات ولكنني أقرأها باللغة الإنجليزية أتلعثم وأنا أكلم نفسي ولا أفقه شيئا فأصمت فوق صمتي.

إنه سؤال يراودني في نفسي المقحمة لماذا أنا هاجرت؟ لطالما تردد صدى هذا السؤال بداخلي.

فأتذكر وأجيب

أتذكر تجربة النبي محمد صلى الله عليه وسلم عندما هاجر من مكة إلى المدينة، كم حزن وعانى، مع هذا كانت هجرته ليشتدا أزرهُ ويعود فاتحا إلى مكة المكرمة، فهجرة النبي لم تكن فقط له إنما درساً وقدوة لنا أيضا

"ولكم في رسول الله أسوة حسنة" الأحزاب ٢١

حبيبي يا رسول الله، كم أهونُ على نفسي عندما أقتدي بك، وأتذكر أنك هجرت وخذلت وحوصرت وحوربت وحزنت وبكيت وفرحت، كم أنا سعيد يا رسول الله لأننا في الغوطة أصابنا ما أصابك. ولكننا لم تكُ عزيمتنا كعزيمتك، والآن ننتظر الفرح، ننتظر أن نعود إلى سوريا منصورين

" ليحق الحق ويبطل الباطل"

ثم أجيب نفسي

نعم هاجرت لأن النبي هاجر ولأبدأ حياتي من جديد، هاجرت من الظلم والاستبداد والديكتاتورية هاجرت هربا من الخذلان والقصف والخوف، هاجرت لأستطيع التنفس هاجرت لأشياء لا أستطيع تفسيرها بأبجديات العالم.

لا أنكر بأنني قلق بعض الشيء فثمة خوف يكتنفن ولا أكتنفه، هنا تختلف الحياة كثيرا، فحتى أحلامي اضطررت إلى تقليص بعضها وتخليت عنها فالعمل هنا قد يمنعك من بناء جل أحلامك ولكن إن صبرت ستنال حتما.

إنهُ رمضان قد هل على أول مرة في الغربة، لا أنكر أن رمضان الماضي كان شاقا في الغوطة لانقطاع مقومات الحياة فيها سابقا. ولكنه كان يجمع عائلتي على مائدة متواضعة واحدة، كان جميلا رغم قساوة الحياة علينا، أما الآن: فإني أسمع صوت أذان المغرب باللغة العربية المكسرة، وأرى مائدة الإفطار متواضعة كئيبة خاوية... أراها خالية من لمسات أمي. أراها مهجورة من كحة أبي وعائلتي.

" أمي" يا لهذا الاسم فعندما أريد أن أذكر أمي في قلبي أو على شفتي تمنعني دموعي السخية، أشهق وأبتلع دموعي مع غصتي وأصبر.

اعلموا جميعاً

أن في الغربة ثمة قسوة طبيعة من الجميع بلا استثناء قسوة من العمل والبرد والحر وحتى من نفسك في الغربة لا يوجد حنان من أحد أبدا ، فلا أمٌ تؤويك ولا أبٌ ينصحك ولا أخٌ يشعر بك ، إنما هناك رحمة من ربك الذي لا يخذلك مهما اشتدت بك العواصف فكن واثقا بالله وتوكل عليه ، في الغربة لا تبحث عن أحد سوى الله فإنك بحاجته أينما ذهبت ، في الغربة الله هو سندك وقوتك ، في الغربة الله هو عائلتك و ربك وخالقك الله هو ناصرك ، وتذكر أن الله قال لك " ونحن أقرب إليه من حبل الوريد " ق ١٦ وعندما تعود من الغربة ستدرك أنك بحاجة إلى الله أكثر لأنك عرفته أكثر .

ربي إني حججت بخيالي فهل تقبل مني

اشتقت لبيتك ربي وأعرف أن لي معاصي كثيرة ولكن اطمع برحمتك التي وسعت السموات والأرض فها هي نفحات الحج تتطاير وتنثر شذى عبيرها على صدورنا الجافة المرهقة الضيقة الحج هو الفريضة الخامسة من أركان الإسلام.

الحمد لله الذي فرض على عباده فريضة الحج حيث جمع المسلمين في بيته الحرام من كل دولة وكل عرق وكل صنف، ليوحدهم في لباس واحدا ومناسك واحدة وكلام واحد لرب واحد.

يقول الله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} آل عمران ٩٦-٩٧

كم تمنيت أن أكون من حجاج بيت الله الحرام، تمنيت أن أكون ملبياً وساعياً وأكون طائفاً مهرولاً زائراً وصاعداً، إنها مناسك الحج لا أراها إلا من خلف شاشات التلفاز وأشعر بروحانيتها العطرة، لأهتف لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

لم يكن لخيالي مدارك كثيرة فكنت محاصرا في بوتقة صغيرة فكان خيالي مبنيا على أن أعيش بأمان ألا أفقد أحداً أن ابني

بيتي المنهار أن ابتسم في وجه أمي الثكلى، إلى أن هجرت من وطني وتوسعت خيالاتي وهمومي وحرمت من الجميع على أمل اللقاء في يوم من الأيام.

ربي حججت بخيالي   فهل تقبل مني؟

إني حججت وأنا وحيد متعب، حججت وانا بعيد منفي من وطني، حججت وأنا بعيد عن أبي وأمي بعيدٌ عن نفسي وعن هواء دمشق، لطالما خاطبت ربي بأمور عديدة فعندما وصلت إلى مكة بخيالي بتُ أقول أشياء غريبة ولكني شعرت بأنني يجب أن أبوح بها فهتفت:

لبيك ربي وإن ولم أكن بين الحجيج في اليقظة طائفا

لبيك ربي وأنا في غربتي متعبا

لبيك ربي وأنا بعيد عن أهلي مرغم

لبيك ربي وأنا مهجر عنوة

لبيك ربي على ركام بيوتنا

لبيك ربي على قبور أهلنا

لبيك ربي مع كل أم بلا طفل

لبيك ربي مع كل شهيد ويتيم، لبيك مع كل الثكالى والأيامى، لبيك مع كل مغترب، لبيك على عدد النجوم والبشر لبيك حتى نهاية العمر،

لبيك اللهم لبيك.

رأيت نفسي محرماً أطوف حول الكعبة المشرفة وأنا أسبح وأهلل بحمد لله، تفكرت بأحجار الكعبة وتذكرت أبانا ابراهيم وكيف بنى الكعبة وجعلها بيتا لكل المسلمين،

وقوله تعالى في سورة الحج وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُود (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وعلى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ.

رأيت نفسي أسعى مهرولا بين الصفا والمروة حيث ترك سيدنا ابراهيم ولده اسماعيل مع السيدة هاجر في واد لا يوجد فيه لا ماء. ولا غذاء. ولا بشر. وكان سيدنا ابراهيم على ثقة بأن ربه لن يترك ذويه فنادته الزوجة يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي؟ فلم يلتفت إليها «وكأنه على يقين من وعد الله الذي لا يتخلف ولا يخيب»، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ فردّ عليها: نعم، فأجابت من غير تردد ولا قلق: «إذاً لا يضيعنا». وبعدها رأيت نفسي صاعداً على جبل عرفة ثم زرت قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وشعرت أنه رد السلام علي وقفت خاشعا أمام قبره أؤمن بأن الموت حق على الجميع، وتذكرت رابعة العدوية عندما قالت: "ليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب"

وقبلت الحجر الأسود. زرت البقيع مررت بمنى ومزدلفة ، شعرت بأنني أقرب إلى الله أكثر أدركت أن الله شرح صدري . لم أشعر بمشاق الحج أبدا ففرحتي تكاد لا توصف فالآن حققت الركن الخامس من أركان الإسلام. قليلا وأصحوا من

خيالي صحوت متبسماً فرحاً راجياً من الله أن يقبل حجة خيالي وأن يكرمني حجة في اليقظة.

ما كل ما يلمع تركياً

ها أنا أرتدي ثوب اللجوء وأبدأ مسيرتي في الغربة، وها هي عاصفة الوطنية تهب وترتطم بثوب الغربة تاركةً وراءها أحلاما متطايرة مكلومة،

رُغم أننا تشبثنا بأرضنا إلى آخرِ رمق فينا، ولكن الأرض لفظتنا رغماً عنها، هجرنا إلى الشمالِ السوري باحثينَ عن وطنٍ مقوماتهُ الكرامة والأمان والدين، بعيداً عن الطائفية والأنظمة القمعية الدكتاتورية.

بعدما نفيتُ من بلدي تغيرت معادلات كثيرةٌ في نفسي وتحطم كل شيءٍ، كان يتوجب على أن أُجازف لأكتشف، لذا اضطررت للخروج إلى خارجِ أرضِ سورية الحبيبة لكي أوسع آفاقي وأبحث عما كنت أفقده لعلي أستطيع أن أكمل دراستي وابني مستقبلي الذي كلما حاولتُ أن أشيدهُ انهار مع ركام وطني، لستُ أنا وحدي من كان يفكر هذا التفكير بل معظمنا.

الآن أحاول الهروب من وطني أنا وأصدقائي بحثاً عما نطمح إليه، نصل إلى الحدود بشكل غير شرعي ونرى ذلك الجدار الإسمنتي على ارتفاع ثلاثة أمتار،

عشرات المحاولات وأنا أحاول العبور من فوق ذلك الجدار وكل المحاولات باءت بالفشل، محاولة

جديدة وأستطيع أن أعبُر الجدار أنا وأصدقائي، اعتقدتُ بأن أحلامي فوق الجدار مباشرةً، رغم تطور الدولة وتقدمها وجمالها إلا أنها لم تكُ في عيني مثل سوريا،

كانت تركيا مكتظة بالسوريين وكان أثر السوريين فيها يظهر في الازقة والشوارع وحتى على الأشجار، هذا ما كان أجمل شيء بعيني.

فمثلي اليوم مثلُ العراقيّ والفلسطينيّ واليمنيّ.

همست في نفسي اللهم هجرة في سبيلك، وتذكرتُ

تجربة النبي محمد صلى الله عليه وسلم عندما هاجر من مكة إلى المدينة، كم حزن وعانى، مع هذا كانت هجرته ليشتدا أزرهُ ويعود فاتحاً إلى مكة المكرمة، فهجرة النبي لم تكن فقط له إنما درساً وقدوة لنا أيضا

"ولكم في رسول الله أسوة حسنة" الأحزاب ٢١.

أكلم نفسي وأعرف أن الحكومة التركية وقفت بجانب الشعب السوري وأعلم أن تركيا أخذت مناطق كثيرة في الأراضي السورية لوضع نقاط مراقبة كما تسمى أو وصاية تركيا أو ربما انتداب، آهٍ... يا رباه تختلف الكلمات والاحتلال واحد،

فعندما تتفق مصلحة الدولة مع سياستها في الأرض السورية حتما ستكون الإنسانية أولوية لكمِ الافواه في الأمور الاحتلال والنظر إليها كشيء ثانوي أو أكثر

فالسوريون صمتوا عن نقاط المراقبة التركية لكيلا تستحلها روسيا أو إيران أو غيرهم

فمصلحتنا نحن كسوريون (الآن) أن تكون نقاط المراقبة تركية لأننا متفرقون، فالثورة السورية لم تخرج لكي تتدخل بلاد الغرب فينا ... إنما كان هدف الثورة سامٍ وواضح.

وبعد غيابٍ لتسعة شهور تتصل بي أمي وتسألني عن مستقبلي ما حل بك يا ولدي! أجيبها بفمي بأنني سأدرس قريباً وأجيبها بقلبي من غير أن تسمعني أنني متعب جدا من حياة الغربة الحمقاء.

صدمتني الحياة هنا فلم تكُ كما توقعت، نعم أستطيع أن أدرس ولكن أن درست لن استطيع العيش من دون طعام وشرابٍ وسكن، تحولتُ من طالبٍ جامعي إلى عاملّ كادحٍ يبحثُ عن لقمة عيشهِ كغيرهِ، فالعمل هنا يطغى على كل شيء وحتى على العلم لست أنا وحدي هكذا هناك مهندسين ومعلمين وغيرهم والحال يشبه بعضه،

الآن أجلسُ خلف آلاتِ العمل وأشرد قليلاً باحثاً عن مستقبلي الذي سأبنيهِ مهما عصفتْ بي الأيام حتما سأبنيهٍ.

العنصرية لا دين لها

لا اريد أن تكون علاقتي بك كالمهاجر والأنصاري

(بداية لا ننسى حسن استقبالكم لنا ولا ننكر الجميل قط)

لا أريد نصف بيتك ولا نصف مالك ولا نصف ميراثك ولا تجارتك ولا مقعدك في الحافلة ولا نصف هوائك.

وراء جدار الغربة متكئين بعد أن هوى جدار وطننا علينا، اندثر كل شيء بلحظات، خرجنا ونحن نحمل على ظهورنا أحلامنا فقط خرجنا بثيابنا التي لم يذهب عنها بياض ركام بيوتنا، لم نرد وطنك أبداً، أعرف حق المعرفة أن اللاجئين السوريين ليسوا ملائكة ولكن حان الوقت لكسر قاعدة التعميم.

مثلك أنا أريد أن أحيا في بيت تحت سقف متواضع مثلك أنا أريد أن افتح صنبور المياه لأستحم، مثلك أنا أريد أن يتعلم ولدي في المدرسة، مثلك أنا أود أن يكون لي عمل ومال ووطن، مثلك أنا أود أن أكون إنساناً، لا لا أنا لست مثلك أبداً

أنا فقط أود أن أعيش حياة مليئة بالأمان، أريد أن اتكئ على جدار وطن لا يهوي بنا أبداً، لا أريد أن تكون معاملتك مثل علاقة مهاجر وانصاري، فقط اتركني أعيش لوحدي أنا سأبني نفسي.

لحظات الاستقرار تلصق بي وكأنني في هذه اللحظة الثانية في حافلات التهجير القسري، تحديداً وأنا أسند رأسي على زجاج الحافلة وأنظر النظرة الأخيرة إلى ما تبقى من ركام البيوت، وضامر دموعي التي في طريقها للنزول.

كانت صرخات مخنوقة من نفس مكسورة كان صدى الصراخات يتصادم مع نفسي كذلك الآن.

مثلك أنا تجرحني الكلمات والنظرات الحقيرة التي ترميها على لكوني سوري، مثلك أنا أحمل مشاعر شوق وحب أنا لم أخرج من وطني قاصداً وطنك لآخذ عملك واقاسمك رغيفك لم أخرج لأضايقك بالأصل لم أكن أود الخروج.

ابن بلدك الذي يقف على الحدود السوريا المتعدية الحدود الأصلية بكثير. هو لا يقف لأجلي ولأجل وطني هو يقف من أجل مشروع قياداتك السياسية.

لم ولا يهمك أنت تعرف وضعي الذي عشته وأعرف بأنك تنظر لي نظر شزر لكوني سوري، كنت أكره دول الجوار لعنصريتهم، أيها المتعصب ضد السوري لم يمت أبوك في الكيماوي، لم يمت ابن أخيك الصغير من الجوع، لم يمت أخيك شهيداً بالقصف. لم تعرف قيمة الخبز والكهرباء والماء ولا حتى الملابس التي ترتديها ، تالله لا تعرف شيئاً .

الإنسانية يا صديقي ليس أن تعطي المثلي والحيوان حقوقهما مفهوم الإنسانية أعمق بكثير من ذلك

إذا كنت تكرهني لأني (سوري) فأنا لم أختر حسبي ونسبي ولغتي. أنت تعلم أن للجار حقاً على جاره وأن العدالة مطلب يرنو إليه الجميع.

بتُ امشي في بلدك وأنا مطأطئ الرأس لا ليس لأني اخجل من نفسي بل لكي اتحاشى ردة فعلك، أنا لم أهرب من وطني كما تعتقد بل خرجت مرغماً وأعلم أنك لا تهتم بالتفاصيل وهذا ما يجعلك تتنمر علي.

أن لحظات الرجوع إلى الوراء باللون الاسود والابيض هي أرحم بكثير من الآن.... كنت أمشي على ركام وطني وأعلم أن هذا وطني ولا شيء يقيدني أبداً .... شكراً تركيا

الحنين إلى المأساة بين الماضي والحاضر

هل من أحدٍ يحنُ إلى الأسى كيف لأحدٍ أن يحِن إلى العذاب

وكيف يقبل أن يرجع إلى الماضي الذي أذاقهُ الحنظل؟

نعم يوجد ببساطة أنه أنا أحِنُ إلى الأسى ليس لأني أحبه بل لأنه يرتبط بعائلتي والعائلة تعني السعادة

نعم أحنُ إلى الوطن والوطن يعني الكرامة

نعم أحنُ إلى المقبرة لأن هناك لحدُ أخي وابنه الصغير

نعم أحن إلى بيتي الذي كان منتصب القامة

نعم نعم أحنُ إلى الأسى.

تتدافع تلك الكلمات في معجم مفكرتي حيث أنها تتسلل لقلمي لأفرغها على ورقتي البيضاء التي جعدها الحرب.

ماذا تعرفُ عن الماضي!!؟

أعرفُ بأنهُ الساعةُ التي مضت منذ قليل، وأعرف بأنهُ امتددٌ لساعاتٍ من المستقبلِ المنصرم ومثلما أن المستقبل ليس له نهاية كذلك الماضي، وأعرف أنه درسٌ ينبغي أن نتعلم منه ويكون مرجعاً للجميع، فالماضي مهِم كما هو الحاضر.

فمهما كان الماضي سحيقاً لا بدَ من الاستعانة به.

العيد في السنة الماضية غير العيد في هذا السنة

وأنا في السنة الماضية غير أنا في هذه السنة.

أحب الذكرى وربطة العنق الزرقاء والقميص الأبيض لأنهما يرتبطان بالماضي أحب أخي وذراع صديقي المبتورة أحب سقف بيتي الذي لم يعد متقوساً.

أحب أن اتنشق هواء الماضي وأزفر في المستقبل، أخطو في المستقبل وقدمي في الماضي أحب الماضي حبا جما

كنت أعود من العمل وتتسارع خطواتي نحو البيت. أصل إلى البيت وأصافح أبي وأقبل يده وأشمها، كان يضم راحة يدي إلى يداه ويقول إن يداي باردتان كان يمسد يدي ليعطيها من دفئه الضامر، كنا نجلس ونحستي الشاي الذي أعده على الحطب نتسامر ونسمع صوت الآذان.

بنيت نفسي ثم انهارت... ليس لأنها هزيلة لا...بل انكبت من شدة المتاعب. والآن أقوم بترميمها.

أدركت أن الحياة ثابتة ونحن في تغير مستمر

اتتعتع في الكلام لا أجد ما أقول لعل لغة الدموع أبلغ من كلمات اللغة العربية التي تبلغ اثنا عشر مليون كلمة وأحيانا

يكون الصمت أبلغ، نعم إنه صراع بين الماضي والحاضر هذا الصراع الممتد لا ينتهي(سرمدي).

"هل يا تُرى كانت الحياة حقاً بسيطة وعفوية، أو هي حلاوة الذكرى تزيّن في عيوننا الماضي فنستلذّ به؟ أوكان ذلك القلب البريء قادرا على تحويل ما يدخل إليه من مشاهد ومواقف إلى بهجة وفرح؟ - سلمان العودة "

ذات الطريق كل يوم في الصباح أمر به حتى حفظته عن كثب، خاطبت نفسي لأغير المسار وأبحث عن الجديد، في اليوم التالي قررت أن أبدل المسلك فمررت بزقاق

جديد ولكن كانت اشعة الشمس ذاتها والهواء ذاته وعلى نفس الأرض أيضا اختلف بعض الوجه والتي هي أيضا من نفسٍ واحدة، وعن غير قصد عدت إلى طريقي المعتاد لاحظت أن الأرض حفظت خطواتي، أعبرُ على الرصيف وأمشي.

تبدأ الذاكرة بالتخبط ترتعد كتلفاز الأبيض والأسود تذكرني

الأرض، الطائرات، القصف، بسمة أمي، ضحكة أبي، اهازيج أخي، صديقي ...نعم صديقي الذي كان ملتصقاً بي كظلي لم أعد أفكر به، لأنه ببساطة لم يعد بالقرب مني

شكرا صديقي لأنك كنت حنوناً معي ولكن كانت أمي بجانبي

شكراً لأنك كنت أخاً لي ولكن كان أخي بجانبي

شكراً لأنك اعطيتني من وقتك ولكن كانت اسرتي بجانبي

لن أقول بأني كنت بغنى عن الأشياء التي تبادلناها

ولكن ماذا عن الآن .... !؟

أكرر شكري لأنك انعشتني من هلوسات الماضي الذي عشناه سوياً فالمستقبل أثبت عكس ذلك.

أنظر، اهدأ، أحملق، ألتفت، أمشي، أسرع، ابطئ، أبرد وأدفأ، ابتسم، أشرد، أتذكر، أخاف، لا أعرف.

أغبط الطالب الجامعي على نعمة لا يراها ولا يشعر بها ولكني أرى النعمة به لأنني افتقدها. اشاهد أشخاصاً في الشمس من دون ظلال، من حجب ظلها؟

"تلك المشكلة مع الماضي، فهو لا يمضي بالفعل بل يبقى معلقا هنا وكأنه علقة تمتص دمك؛ مهما فعلت أو قلت لا يمكنك التخلص منه أبداً. - بول سوسمان "

سنة أولى (غربة)

الكل يكتب في هذا اليوم بادئاً ب (في مثل هذا اليوم كان وكنتُ وفقدتُ وهُجرتُ ودُمِرتُ و.و.

ولأن التاريخ يكتبهُ المنتصرون جلهُ مشوه، لذا دونتُ بعضاً من تاريخنا؛ وهبتْ الغوطة الشرقية نفسها للثورة السورية ثمانية سنوات مُلئتْ بالتضحيات والصمود.

عِشتُ في الغوطة الشرقية المهمشة عمن أراد تهميشها فقط. قضيت سبع سنوات في بكالوريا الحصار، ثم تأهلت إلى سنة أولى غربة.

أتوقع أن وطأة المعركة في الغوطة كانت أشد من المحرقة الهولوكوستية أو حتى جلجامش الأسطورية، كانت بين عدة دول وشعب واحد أما عن سلاح الدول فهو معروف وأما سلاح الشعب كان حناجراً تصدح وأقلاماً تكتب وصورة تبين الحقيقة.

ولأن المستقبل يسبقهُ الماضي ولأن كان فعل ماض ناقص ... ناقصٌ من كل شيء حتى من الوطن، أصبح من البديهي حينما أتكلم عن الوطن أن استخدم صيغة الماضي بين كان وكنت،

عندما أتكلم عن الوطن بصيغة الماضي أشعر بغصة بحنجرتي تؤلمني إلى أن تدفع دموعي إلى مقلتي وتطوفان، طوفاناً

نغوص في أعماقهِ بين طيات الماضي المهترئ من الأمان إنه يذكرني بطوفان نوح عليه السلام.

كانت تخونني الذاكرة دائماً إلا في الأسى فهي مخلصة معي، فلم يغب عن بالي كل من استنشق غاز السارين ولم يستطع أن يزفر بعد عام ألفين وثلاثة عشر

لم يدنُ النسيان مني بمجازر كفربطنا وسقبا وحمورية وكل مجازر الغوطة.

حتى وإن غابتْ آثار الحصار عن أجسادنا فلم ولن تغيب عن ذاكرتنا وأطفالنا الذين تضوروا جوعاً

لن ننسى خبز الشعير وماء البئر والسكرين بديل السكر

ولن نغفل عن كل من تنشق غاز الكلور ولم يطرحه من جسده

وإن اذعنَ بعضٌ من أهل الغوطة عنوة مرغمين فوالله لن ينسوا شيئاً أبداً فإنما ستذكرهم أبناؤهم وبيوتهم وبقايا كلمات الحرية على جدرانهم واعضاؤهم المبتورة أيضاً.

من هنا كان يمرَّ،

مرَّ على عينين جاحظتين وحاجب مقطوب ووجه شاحب وبطن مجوف وساقين هزيلتين ونتوء العظام من تحت الجلد ومريض سرطان ومريض قلب وعلى طفل بعمر الدقائق وشيخ بعمر الثمانين وعلى ميت تحت التراب وشجر من دون ماء وعلى بيوت مدمرة وكل امتداد ذرات التراب شرق دمشق

وعلى أشخاص علمانية وأخرى إسلامية على عدالة المآذن وأروقة الكنائس وعلى وضح النهار وعتمة الليل، على كل من تشبث بالوطن ولم يذعن ويتركها

من هنا مر حصار الغوطة الشرقية.

قبل سنة في مثل هذه الأيام والدقائق والثواني كنا نعيش حياة مختلفة عن الجميع من دون استثناء؛ الذاكرة هي التي ألحت عليّ واجبرتني على التذكر.

كان كل شيء متضارب، كانت الشمس تشرق لتحرقنا والهواء يهب ليكسرنا، والأرض تدور لتزعجنا. والليل يأتي ليشردنا كانت السماء للطائرات والأرض للصواريخ وما تحت الأرض لجثثنا كان كل شيء يوحي لنا بأن الموت يقترب أكثر.

بعيداً عن التغطرس

ولأن عدد الناس كان قليلاً والمقاعد كثيرة

تعلمت من حصارِ الغوطة ما لم تعلمه الجامعات الأوروبية، تعلمت أشياء لا يمكن شرحها لبروفسورات تعلمت عن أشياء أنا عاجز عن كتابتها البته.

اضمحل الحصار وخرجت مضطهداً مرغماً مهجراً من الغوطة الشرقية، خرجت حاملاً أحلامي على عاتقي ولسوء حظي لم تتسع أحلامي في الحافلات الخضراء المعدة لترحيلنا اضطررت للتخلي عن بعضها.

كانت الأرض تبكي، والجدران مترنحة على بعضها تئن وبقايا البيوت بُحَ صوتها، الركام والحجارة مندهشة من وهلة المنظر، الغبار يعم أرجاء الأزقة ويعتنق رموش أعيننا، كان كل شيء مريضاً.

كثيراً ما كنت متشبثاً ببيت الشعر هذا

حي المنازل إذ لا نبتغي بدلاً   بالدار داراً ولا الجيران جيرانا

عذراً فلم يبقَ دار فقد ابتغينا بالدار غربة قاسية وبالجيران غرباء لا يتكلمونَ لغتنا.

في مثل هذه الأيام تماماً أكون قد اتممت السنة الأولى في الغربة لأصبح سنة أولى غربة أريد أن اتخرج من الغربة. وأرجع إلى وطني، أريد أن استخدم صيغة المستقبل في بلدي

سأعود إلى الوطن سأنتصر، سأحيا، سأبني، سأبتسم.

سنة ثانية (غربة)

"الفقر في الوطن غربة، والغنى في الغربة وطن"

من حلب إلى الغوطة الشرقية وها نحن نودع آخر جزء من الوطن إدلب

نهاية سنة قديمة وبداية لسنة جديدة،

فالمعتقل زاد سنة في سجنه، والمصاب زاد سنة في إعاقته، والمغترب والطفل والشهيد والظالم والمظلوم والذي لم استطيع ذكره كلهم ازدادوا سنة.

لم أكن الفاقد الوحيد للوطن إلا أني فقدته بشكل مختلف عن الجميع، رغم صعوبة الحياة وشظفها وانعدام الأمان في الوطن صبرت. ولأن الواو من حروف العطف، والعطف شعور مخبأ في داخلنا وهو من سمات الأم أيضاً

والطاء لا يوجد عند أحد إلا العرب

والنون ثقيلة وتحتاج لأنين

وبعدها إلى الغربة والتهجير.

مع تراكم السنين تتبلد المشاعر المنبثقة للوطن، في الأشهر الأولى من الغربة ترى كل شيء حولك يشبه وطنك من حَانٍ إلى رصيف معبد بأحجار تشبه أحجار دمشق، من صوت

مئذنة يكاد يطغى عليها حرف الهاء على الحاء "أشهد أن مهمدا رسول الله" حيث أنك ترى الجامع الأموي في كل مسجد تدخله،

تتذكر القمح المبعثر على الأرض ولون الحمام الرمادي وهو يلتقطه بمنقاره ويحلق على أكتاف المساجد

تتذكر صوت زخات المطر عندما تمتزج بالتراب وتشتم رائحة عبق لا توجد في أنحاء العالم، وثم تتذكر ضوء البلدية ذلك الضوء البرتقالي الذي كان يختلط مع لون الليل والنسيم وكان بينهما ظلك أنت.

في الأشهر الثانية من الغربة تصبح تلك المشاعر أشبه بروتين يومي ويقل الشعور بها، تختنق وكأنك تحت الماء من دون أوكسجين، تنضغط ولا تستطيع أن تنفجر، تذوب كقطعة سكر وحيدة في قدح كبير

وتمسي تلك الصور في حقل الماضي وما تظل إلا ذكريات تأتيك عند الشرود، في المرة الأولى قد تفيض عيناك بعض الشيء ولكن بعد فترة ستجف حتماً، والشرود سيلازمك كثيراً ستشرد بتفاصيل كل ما تركته من الثياب التي تركتها وحيدة في خزانتك المتواضعة، والكرات الزجاجية التي كنت تلعب بها في طفولتك، وحتى جلاء المدرسة أيضاً والأعظم من كل شيء عائلتك والوطن.

وفي السنة الأولى من الغربة يتغير كل شيء حتى أنت أيها القارئ، والحنين إلى الوطن يتلاشى رويداً رويداً أتسأل هل

هذا يعتبر خيانة للوطن؟ وهكذا دائماً تنشب في مفكرتي حرب من الأفكار وينتصر الحنين إلى الوطن ولكن يرتفع مكيال العقل لأعود للحرب ثانيةً، ستشعر بتعطش إلى الجانب الروحاني وإياك ألا تسقي روحك من هذا الجانب، أسقِ كيانك بشغف وكن مع الله فهو أقرب إليك من حبل الوريد

وإن فعلت العكس فستزيد ضياعك ضياعاً آخر.

في السنة ونصف الأولى من الغربة فجأة تنظر إلى المرآة وتحملق فيها تتحسس لحيتك بأطراف أصابعك وتتذكر صوتك أمك وهي تقول كم كبرت يا ولدي، تتلمس رأسك وتبعد بعضاً من شعرك نحو جهة ما وترى بضعاً من الشعر الأبيض فعندها تبتسم ابتسامة يصعب تفسيرها كثيراً، تعود إليك شرده بسيطة مع موسيقا المياه التي تتدفق من الصنبور وصوت زفيرك الذي كان مبهم: قائلاً أين أنا ولماذا أنا هنا وتسأل أسئلة ما لها من جواب.

وفي السنة الثانية من الغربة تتذكر المتنبي بِمَ التّعَلّلُ لا أهْلٌ وَلا وَطَنُ وَلا نَديمٌ وَلا كأسٌ وَلا سَكَنُ. دعك من المتنبي وتذكر شيئاً أعظم، أغمض عيناك وتذكر وجه أمك

ويداها الرقيقتين المجعدتين تذكر ابتسامتها وطرف أسنانها، وصبرها ومدى تفهمها لك، تذكر صلاتها ودعائها

وثوبها الذي كنت تشتم به رائحة أمك المميزة، تذكر كل شيء يخصها فالذكرى مع حذاء أمي ثروة لا تقدر بثمن.

رأسي الآن مليء بالضجيج ضجيج لا يشبه ضجيج الموسيقا الهادئ. حتى الأصوات المزعجة وإن كانت آنين تعتبر موسيقا وحتى كل البلاد تعتبر أوطان، وكل الأوطان التي تحيا بها تجبرك على التوطن.

الوطن يا عزيزي حيث يجتمع الجميع "جميع من تحب"، كنت أؤمن أن الوطن هو الانتماء إلى الوطن ولكنني كفرت بهذا!

عن الكاتب

من مواليد دمشق/الغوطة الشرقية، درست التمريض وكنت قد درست الصحافة والإعلام ولم تتح لي الفرصة بأن أكمل، حالياً ادرس إلهيات في جامعة الأناضولو،

شغفني حب الكتابة منذ نعومة أصفاري، وأتوجه بالشكر لكل من ساعدني وأتم قراءة هذا الكتاب المتواضع.

بريد الكتروني: mhmwdtmt957@gmail.com

الفيس بوك: mahmoud tamaa